

الاسكندر الاكبر : فلسفته السياسية(*)

د . ابراهيم نصحي قاسم

في تقدير المنصفين أن الاسكندر الاكبر كان قائدا عسكريا فذا ، وكذلك سياسيا موهوبا ذكى الفؤاد واسع الافق نبيل الفكر ، فلا عجب أنه يعتبر أحد أولئك القلائل الذين غيروا مجرى التاريخ . ذلك أن الحملة الكبرى التي قام بها حطمت الامبراطورية الفارسية ، وكانت امبراطورية عظمى توافرت لديها موارد هائلة وتحت امرتها قوات برية وبحرية ضخمة تتمتع بكفاية قتالية عالية . وبعد سيطرة هذه الامبراطورية على آسيا الصغرى ، تهددت بلاد الاغريق الأوروبية تهديدا خطيرا ، وكانت لها تأثيرات بالغة الأهمية مباشرة وغير مباشرة على مجريات السياسة الاغريقية .

وقد تمخضت حملة الاسكندر الكبرى عن اقامة امبراطورية مقدونية مترامية الاطراف ، لكنه لم يكن في ضمير الدهر أن تعمّر هذه الامبراطورية المقدونية أكثر من بضع سنين بعد وفاة منشئها . ومع ذلك فإن حملة الاسكندر غيرت وجه العالم القديم بحيث أنه لم يعد شيء على حاله السابقة بعد هذه الحملة . ذلك أنه من ناحية فتحت أمام الاغريق آفاق فسيحة للهجرة والتجارة ، ونقلت الى بلاد الاغريق كميات هائلة من ذهب الفرس وفضتهم ، لم تلبث أن فازت بحظ منها البلاد الغنية بمحاصيلها الزراعية بسبب اضطراب

* القيت هذه المحاضرة في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

الاغريق الى تموين نفسها بتلك المحاصيل من الخارج ^(١) . ومن ناحية ثانية ، لم يكد الاسكندر يلقي ربه حتى نشبت بين قواد الفاتح الكبير حروب شعواء ترتب عليها أن الامبراطورية المقدونية انهارت ، وأنه قامت على انقاضها ثلاث دول هيلينيسية انتقلت اليها مراكز الثقل السياسى والاقتصادى والحضارى الى أن استوعبتها روما فى امبراطوريتها . ومن ناحية ثالثة أفضى خضوع أغلب المدن الاغريقية لواحدة أو أخرى من الدول الهلنيسية الجديدة الى انقضاء عصر المدن الحرة بوصف كونها دويلات ذات سيادة . ومع استمساك هذه الدويلات من الناحية الفعلية بمبدأ الانفصالية ، فانه من الناحية النظرية خلفت فكرة العالمية هذا المبدأ . ومن ثم غانه انبثقت فكرة وجود عالم واحد (Oikovmene) يعتبر ملكا مشتركا للبشر المتحضرين ، ومن أجل هذا العالم وجدت لغة مشتركة (Koine) ساعدت على التقارب بين أهل هذا العالم . فقد أخذ المتعلمون فى كل مكان يستخدمون لهجة أتيقا ، وهى التى نشأت منها بالتدريج اللغة الاغريقية الهلنيسية ^(٢) . وسنرى كيف أن فكرة العالمية كانت فكرة ثورية انبثقت من فلسفة الاسكندر السياسية . ومن ناحية رابعة ، أدت سياسة الاسكندر التى عنيت بانشاء مدن اغريقية كثيرة بين ربوع الشرق القديم ، وهى السياسة التى اقتفى السلوقيون أثرها على نطاق واسع والبطالمة على نطاق ضيق ، أدت هذه السياسة الى نشر الحضارة الاغريقية فى الشرق حيث التقت بالحضارات الشرقية القديمة فحدث بين الجانبين تفاعل تتفاوت الآراء فى تقدير مداه ، بيد أن الباحثين جميعا يتفقون على اطلاق اسم العصر الهلنيسى على القرون الثلاثة التى تبدأ بموت الاسكندر فى عام ٣٢٣ ق م . وتنتهى عند بداية الثلث الأخير من القرن الأول قبل

(1) Glo tz, Le Travail dans la Grèce uncienne pp. 389 - 92.

(2) Tarn, Hellenistic Civilisation, 1930, p. 4 ; Kaerst, Die Antike Idee der Oikumene, 1903.

الميلاد بدخول دولة هليينيسية ، وهى دولة البطالمة ، فى حظيرة الامبراطورية المقدونية •

ومما يجدر بالملاحظة أن اهتمام الاسكندر بانشاء مدن اغريقية كثيرة بين جنات الشرق القديم لم يكن هدفا فى حد ذاته ، وانما كان احدى الوسائل التى أراد التوصل بها لتحقيق هدف أكبر لم يسع السلوقيون ولا غيرهم من خلفاء الاسكندر الى تحقيقه • فقد كان هذا الهدف حصيلة فلسفة الاسكندر السياسية ، وكانت أسمى من أن يرتقى اليها تفكير معاصريه ، بل تفكير أعظم مفكرى عصره ، وكذلك تفكير أجيال عديدة من بعده ، مما أفضى الى وصف هذه الفلسفة بأنها خيالية • فما كانت فلسفة الاسكندر السياسية ، وهل ماتت بموته الافكار التى بشرت بها هذه السياسة ؟

وتوخيا للموضوعية ، واثيرا للوضوح ، سأحاول استخلاص هذه الفلسفة من صفات الاسكندر ، وأعماله وأقواله • وجمع شتات الصورة التى نستشف منها هذه الفلسفة ، ووضع هذه الصورة فى اطارها الطبيعى ، يقتضيان الاشارة الى حالة بلاد الاغريق عند ارتقاء الاسكندر عرش مقدونيا ، وكذلك الى بعض مراحل حملته ضد الفرس مع ابراز ما يتصل بموضوعنا من فعال الاسكندر وأقواله وردود الفعل التى أثارته • وسأهمد لذلك كله بكلمة موجزة عن نشأة الاسكندر وأهم صفاته •

وكان الاسكندر الاكبر أو الثالث ابن فيليب الثانى ملك مقدونيا من أولومبياس ابنة الملك ابيروس • وقد ولد الاسكندر فى صيف عام ٣٥٦ ق.م • ، وارتقى عرش مقدونيا وهو فى العشرين من عمره ، وتوفى فى بابل بعد ذلك بثلاثة عشر عاما فى ليلة ١٠/١١/ من يونية عام ٣٢٣ ق.م • (٣) • ويبدو أن الاسكندر ورث عن أبيه مواهبه

(3) Samuel, A.E., Ptolemaic Chronology, pp. 46 ff. ; Hamilton, J.R., Plutarch : Alexander : A Commentary, p. 210.

العسكرية وجلده على العمل وقدرته على حسن تصريف أمور الدولة ، وعن أمه الحسن المرفه والعواطف المتأججة ، لكن رحمة الله شاعت أن يتوافر له من قوة الارادة ومضاء العزيمة ما مكنه لا من كبح جماح هذه العواطف فحسب ، بل أيضا من فرض شخصيته على رفاقه ، ومن الاستمسك بآرائه ومعتقداته في وجه أشد الاعتراضات وأجلها خطرا • وليس معنى ذلك أنه كان صلبا عنيد الرأي ، فقد كانت لديه مرونة كافية ، وانما معنا أنه اذا آمن برأى فانه كان لا ييأسى بمن يتعذر عليه فهمه والارتفاع الى مستوى تفكيره • واذا كان الاسكندر قد ورث بعض صفاته عن أبويه ، فانه بزهما في سماحة النفس ورحابة الصدر ، وفي صفاء الذهن ورجاحة العقل ، وفي أصالة الرأي واتساع أفق التفكير • ولعل مرد بعض ذلك الى أنه حين كان في الثالثة عشرة من عمره دعا أبوه الفيلسوف أرسطو ليتولى تعليمه ، فدرس الاسكندر على هذا الفيلسوف الكبير ثلاث سنوات أو تزيد قليلا لقنه في خلالها آراءه في علمى السياسة والاخلاق وجغرافية آسيا وفيما يبدو الميتافيزيقا ، وبث فيه حب الفلسفة وروح البحث العلمى • ولا جدال في أن الاسكندر قد جنى خير الثمار من تعاليم أستاذه ، بيد أننا سنرى فيه نموذجا نفتقده في طلابنا ، نموذج الطالب الذى يفيد من توجيهات أستاذه دون أن يصبح صورة ممسوخة منه •

ومن المعروف أن بلاد الاغريق لم تكن دولة تنظمها رابطة الوحدة السياسية ، وانما كانت تنقسم الى عدد كبير من المدن الحرة أو الدويلات المستقلة ، وكانت كل منها تحرص أشد الحرص على حريتها واستقلالها ، وكانت الاحقاد والمنازعات تفرق بين بعضها بعضا ، وفضلا عن ذلك كان الصراع الحزبى يقطع أوصال كل منها • وقد كان من شأن هذه الأوضاع تشجيع الدول الكبيرة على فرض سيادتها على بلاد الاغريق ، فالفرس حاولوا ذلك في صدر القرن الخامس قبل الميلاد لكن الاغريق عاى قلتهم استطاعوا رد جحافل

الغزاة على أعقابهم خاسرين • وقد بث هذا النصر الباهر في الاغريق اعتزازا قويا بأنفسهم وايماننا عميقا بسمو الحضارة الاغريقية على كل ما عداها ، وتبعاً لذلك ازدراء شديدا لكل ما هو ومن غير اغريقى •

وفي خلال القرن الرابع قبل الميلاد حيث كانت مختلف ضروب الصراع تنهش قوى بلاد الاغريق وتنشيع الفوضى بين أرجائها ، كانت مقدونيا على حدودها الشمالية تجد في دعم وحدتها واعلاء شأنها • وعندما ارتقى فيليب الثانى عرش مقدونيا ، رأى أن ينتهز فرصة حالة بلاد الاغريق ليوحدتها بزعامة مقدونيا سياسيا وحربيا ، ويقود الاغريق في حرب قومية ضد أعدائهم الفرس ، وكانوا لايزالون يشكلون خطرا على بلاد الاغريق • ذلك أن الفرس كانوا يسيطرون على اغريق آسيا الصغرى ، وعلى الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط الى ما نعرفه اليوم باسم برقة ، ويتمتعون بسيادة البحر في هذه المنطقة • وقد كان لفيليب هدفان : وأحدها هو خضوع بلاد الاغريق له وتأييدها اياه لانه سيصبح قائد حرب الانتقام من الفرس ، والآخر هو القضاء على الخطر الفارسى • وعندما أبى الاغريق التسليم طواعية بزعامة فيليب ، أنزل بهم هزيمة فاصلة في موقعة خايرونيا (Chæronea) في عام ٣٣٨ ق.م • ، وألف من عدة دول أغريقية عصبة جعل مقرها مدينة قورنتة ، وقررت العصبة محاربة الفرس بقيادة مقدونيا •

وعندما قتل فيليب بعد ذلك بعامين ، وخلفه الاسكندر وهو لايزال شابا في العشرين من عمره ، ظن الاغريق وجيران مقدونيا الشماليون أن الفرصة مواتية للانتفاض على مقدونيا ، لكن الاسكندر خيب ظن هؤلاء جميعا • ذلك أنه ما أن وافى خريف العام التالى (٣٣٥) حتى كان قد أمن حدود مقدونيا ودعم سيطرتها على بلاد الاغريق ، حيث أعاد تكوين عصبة قورنتة واختارته هذه العصبة مكان أبيه قائدا

لها في محاربة الفرس • ومما يجدر بالملاحظة أن الميثاق الجديد للعصبة تضمن النص على تمتع كل دولة من الدول الاعضاء باستقلالها الذاتي ، وعلى عدم التدخل في شئونها الداخلية • بيد أنه لما كان الاسكندر يدرك شدة تمسك الاغريق باستقلالهم ، ويخشى على مؤخرته وخطوط مواصلاته من انتقاص الاغريق عليه في اثناء محاربته انفرس ، فانه احتفظ بحاميات في بعض أنحاء بلاد الاغريق ، وعهد الى قائده أنتيباتروس بأن يتولى بالنيابة عنه حكم مقدونيا وكذلك بالاشراف على شئون بلاد الاغريق وفقا لما كانت تقتضيه ظروف الحرب مع الفرس •

وما أن أتم الاسكندر استعداداته لمحاربة الفرس حتى بدأ في ربيع عام ٣٣٤ حملته ^(٤) المشهورة بعبور الدردنيل الى آسيا الصغرى حيث كانت عشرات من المدن الاغريقية التي اعتمد الفرس في حكمها على حكام مواليين لهم ، اما من الطغاة واما من حكومات الاقنية مع الاستعانة أحيانا بحاميات ، وهو الاسلوب ذاته الذي اعتمد عليه أنتيباتروس في بلاد الاغريق الاوروبية • وأما في آسيا ، فان الاسكندر اتبع أسلوبا يختلف عن ذلك تماما ، فقد أعلن أنه جاء لتحرير المدن من الحكم الاجنبى ، والقضاء على حكم الطغاة والأقليات ، واعادة الحكم الديمقراطي الحر ، والغاء الجزية التي كانت المدن تدفعها للفرس ، ونفذ ذلك في كل مدينة لم تقاومه • ومن المعروف أن النظام الديمقراطي كان عريضا بين الاغريق ، عزيزا عليهم • لكن الاسكندر لم يلبث أن أفهمهم على نحو لا يرقى اليه الشك أنه لم يقصد تأييد الحكم الديمقراطي الحر أنه كان يسمح بعودة الصراع الحزبى ، أو أن يفعل الديمقراطيون ما يحلو لهم بخصوصهم السياسيين ، ولذلك فانه في أفسس وخيوس ،

(٤) المصادر الرئيسية عن حملة الاسكندر :

Arrian., Anab., I, 11, 3 - VII, 30 ; Diod., XVII, 17, 3 - 83 ; Plut., Alex., 14, 5 - 62.

عندما أخذ الديمقراطيون الذين استولوا على السلطة يعملون القتل في خصومهم السياسيين ، تدخل على الفور لوقف المذابح وعاقب الديمقراطيين في أفيسوس بعدم اعفائهم من الجزية • وفي خيوس وضع حامية وقرر بقاءها هناك الى أن يسود الوفاق بين مواطنيها ، فضلا عن ذلك فانه اتخذ قرارا له دلالتة بوصف كونه اينانا مبكرا بالسياسة التي كان ينوى انتهاجها ازاء الفرس وسنتتبع خطواتها واحدة تلو أخرى • ذلك أن هذا القرار اقتضى اطلاق سراح المتهمين بميولهم نحو الفرس ، وعدم تقديم أحد في المستقبل للمحاكمة بسبب ميوله الفارسية ، ولم يستثن القرار الا الخونة والضغاة •

ومنذ مستهل حملة الاسكندر يتكشف لنا اهتمامه بأمر آخر ، ذلك هو اهتمامه بانشاء عدد كبير من المدن ومستعمرات الجنود ^(٥) ، مما جعل الاسكندر في عداد أعظم بناءة المدن في كل العصور • فقد قيل أنه أنشأ أكثر من سبعين مدينة ، فضلا عن عدد غير معروف من مستعمرات الجنود ، لكن البحث الحديث لم يستطع التأكد الا من حوالي عشرين مدينة ^(٦) ، وكانت أعظمها جميعا وأبقاها على الدهر مدينة الاسكندرية في مصر •

ويستوقف النظر في هذا الصدد أمران : أحدهما هو أن الغالبية العظمى من المدن التي تعرف عن يقين أن الاسكندر أسسها في اثناء حملته كانت شرقي الدجلة ، أى في بلاد الفرس ذاتها • والأمر الآخر هو ان الاسكندر أنزل في المدن والمستعمرات التي أنشأها ومقدونيين وأهالي وطنيين ، توحى القرائن بأنه كانت لهم جميعا الحقوق نفسها وعليهم الواجبات ذاتها •

(٥) من منشآت الاسكندر ، انظر :

Tarn, Alex. the Greco-Bactrian, vol. II, App. 8 ; Bactria and India, pp. 6 - 11 and Ref.

(6) Tarn, Alex., Vol. I, 1956, pp. 132 - 3.

وبعد انتصار الاسكندر في موقعة جرانيقوس على القوات الفارسية التي واجهته في أعقاب عبوره الدردنيل ، ثم نجاحه في تحرير شواطئ آسيا الصغرى الغربية والجنوبية ، أحرز نصرا باهرا على ملك الفرس دارا الثالث في شمال سوريا (نوفمبر عام ٣٣٣) • وبدلا من يتابع الاسكندر انتصاراته باقتفاء أثر الملك المنهزم الذى فر الى بابل ، آثر أن يفتح أولا فينيقيا ومصر • ومما يستحق الذكر أنه عندما كان الاسكندر في فينيقيا أتاه من دارا كتابان ^(٧) وصله أولهما وهو في ماراتوس ^(٨) وثانيهما هو يحاصر صور ^(٩) • وفى الكتاب الأول احتج دارا على أن الاسكندر باداة بالعدوان ، وفى الكتابين عرض دارا على الاسكندر محالفته ويد ابنته وافتداء أسرته بمبلغ كبير ، وأضاف الى ذلك فى الكتاب الثانى التنازل للاسكندر عن كل الممتلكات الفارسية غربى الفرات وفقا لاربانونوس وبوتارخ ، أو غربى نهر هالوس وفقا لفورتيوس • وقد رد الاسكندر على الكتاب الاول بما اعتبر السبب الرسمى للحرب ، فقد تضمن هذا الرد أن الاغريق اختاروا الاسكندر القائد الأعلى لهم ، وانه غزا آسيا للانتقام من الاعمال العدوانية التى ارتكبها الفرس ضد مقدونيا وبلاد الاغريق ، وأنه بعد الانتصارات التى احرزها يعتبر نفسه السيد الأعلى لآسيا • وكان أهم ما تضمنه رد الاسكندر على الكتاب الثانى أنه لن يرضى بأقل من الامبراطورية الفارسية كاملة ، فهى كلها وكنوزها جميعا فى متناول يده •

ويروى أنه عندما عرض الاسكندر الكتاب الثانى على رفاقه قال بارمنيون قائده العجوز انه لو كان الاسكندر لقبل ما عرضه دارا وانهى

(7) Radet, in Rev. Et. anc., 1925, pp. 183 ff. and Ref. ; Tarn, C.A.H., VI, pp. 357, 373 - 4, 376 ; Alexander, 1956, pp. 8, 36, 40.

(8) Arr., II, 14 ; Curtius,, IV, 1, 7 - 14.

(9) Arr., II, 25, 1 - 4 ; Plut., XXIX, 4, Diod., XVII, 47, 1 - 6 ; Curtius, IV, 5, 1 - 8.

الحرب دون التعرض لمخاطر أخرى ، فرد الاسكندر بقوله : انه أيضا لو كان بارمنيون لقبل ذلك العرض ولكنه بوصف كونه الاسكندر سيرد على غرار ما فعل من قبل ^(١٠) ، ونحن لا نجد مبررا لتشكك « تالان » في صحة هذه الرواية ، ونرى فيها دلالة باكرة على الفارق بين تفكير الاسكندر وتفكير رفاقه وهو الفارق الذى سنرى أنه تزايد باطراد على مر الزمن ، كما نرى في هذه الرواية دليلا على اتساع الأهداف التى كان الاسكندر يتوخاها من وراء حملته ضد الفرس ، مما يتصل بموضوعنا اتصالا وثيقا .

وبلغ الاسكندر مشارف مصر في نوفمبر عام ٣٣٢ وقد طوقته هالة من جلال انتصاراته الحديثة ، فلم يجد والى مصر الفارسي مفرا من التسليم ^(١١) . وما كاد الاسكندر يحط رحاله في منف حتى اتخذ من المصريين موقفا جديرا بالملاحظة لما ينطوى عليه من دلالة . ذلك أن الاسكندر الذى رأى قواته تجتاح كل مقاومة اعترضت سبيله كان القائد الاعلى لعصبة تورنتة ، ورافع لواء الحضارة الاغريقية وحامى حمى الاغريق ، ووفقا لواجهة النظر الاغريقية وتعاليم أستاذه أرسطو لم يكن المصريون الا برابرة غير جديرين بالاحترام . وازاء ذلك كله ما كان أيسر على الاسكندر من أن يزدري المصريين ويغفلهم من حسابة كلية ، فيقيم حكمه في مصر على القوة وجدها ويكتسب تهليل الاغريق له . لكن الاسكندر رأى غير ذلك وسلك مسلكا يستهدف ارضا كل من المصريين والاعريق . ففيما يخص المصريين أحترم ديانتهم وتقاليدهم بأن قدم القرابين للالهة الوطنية والعجل المقدس آبيس ^(١٢) ، وأضفى على مركزه صيغة شرعية بأن رسم نفسه فرعوناً

(10) Arr., II, 25, 2 ; Plut., XXIX, 4.

(11) Arr., III, 1 - 2 ; Plut., XXVI, 2 - 6.

(12) Arr., III, 1, 4.

انظر أيضا ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الطبعة الرابعة ج ١ ، ص ٢٠ هامشى ٢

طبقا للطقوس المصرية (١٣) . وأما فيما يخص الاغريق فانه أقام في منف حفلا اغريقيا (١٤) .

وبعد أن فرغ الاسكندر من مهامه في منف ، وضع أساس مدينة الاسكندرية (١٥) ، ثم حج الى معبد وحي آمون في سيوة ليحقق ثلاث غايات (١٦) . وهى : أولا اثبات صلة نسبه بالالهة ، لأنه اذا كان قد توج فرعوننا في منف وغدا على هذا النحو لها في نظر المصريين ، فانه أراد أن يثبت للعالم الاغريقى أنه سليل الالهة . ولما كان معبد آمون في سيوة يتمتع منذ عدة قرون خلت بشهرة عالمية تضارع شهرة أعظم معابد الوحي في بلاد الاغريق في حين أنه كان لا يدانى معبد آمون في طيبة من حيث الأهمية بالنسبة الى المصريين ، فان الباحثين يرون في وقوع اختيار الاسكندر على معبد آمون في سيوة دليلا على الاهداف المحلية كانت تأتى في المرتبة الثانية بعد أهدافه الدولية ، أى أنه كان يستهدف من وراء حجه الى معبد آمون في سيوة أنه سليل الالهة أمام الرأى العام الدولى قبل كل شيء .

(13) Ps. - Callisthenes, I, 34, 2 A.

انظر ايضا ابراهيم نصحى ، المرجع السالف الذكر ، ج ٢ ، ص ١٣ وما بعدها .

(14) Arr., loc. cit.

(15) Arr., III, 1, 5.

لا يأخذ أكثر الباحثين بما جاء في ديودوروس (XVII, 52,1) وفورتيوس (IV, 8,1) ديوستينوس من ان الاسكندر أسس الاسكندرية في طريق العودة من واجة سيوه .

(16) Nosuy, Annale, Fac. Lettres, Ibrahim (Ainshams) Un., II, 1953, pp. 75 - 98.

انظر ابراهيم نصحى ، المرجع السالف الذكر ، ج ١ ، ص ٢٢ وما بعدها

وأما الغاية الثانية التى كان الإسكندر يتغياها من وراء حجه الى معبد آمون فى سيوة ، فانها كانت الحصول أمام الرأى العام الاغريقى على تأييد الاله الاكبر آمون لأعماله المقبلة (١٧) . وأما الغاية الثالثة فانها كانت تحقق رغبته فى اقتفاء أثر بطل الاساطير الاغريقية برسيسيوس وهرقل ، اللذين شاع الاعتقاد قديما أن الاسكندر كان ينحدر من سلالتهم ، وأن هذين البطلين تزودا بمشورة آمون سيوة قبل الاقدام على أعمالها الحافلة بالمخاطر (١٨) .

ومعنى ذلك كله أن الاسكندرية ، الملك الفاتح المنتصر ، كانت تتملكه رغبة ملحة فى أن يضيف على نفسه صفة ترفعه فوق مصاف البشر ، وفى أن يؤكد للعالم الاغريقى أنه شديد الاستمساك بأغريقيته ، وكذلك أن الاله الاكبر آمون يبارك تصرفاته المقبلة . وذلك كله ينم عن أمرين ، وأحدهما هو عزوف الاسكندر عن الاعتماد على القوة وحدها لدعم نفوذه ، والآخر هو اعتزام الاسكندر على أن ينهج نهجا كان يقدر تماما أنه نهج شائك ، ولذلك فانه حشد لنفسه من الوسائل ما اعتقد أنها كافية بتذليل ما سيعترض سبيله من صعاب . ولو أن المسألة كانت مجرد فتح الامبراطورية الفارسية ، لكان جيشه كفيلا بذلك ، ولاسيما بعد الضربات القاصمة التى كيلت لقوات الملك الاكبر ، والقضاء لتوه على الاسطول الفارسى (١٩) .

وبعد عودة الاسكندر من سيوة الى منف ، أقام حفلا اغريقيا ثانيا ، ووضع النظم التى تتبع فى حكم مصر . وتتمتاز هذه النظم بثلاث مظاهر تكررت فيما بعد فى النظم المؤقتة التى وضعها احكم الامبراطورية الفارسية . ولا يتصل بموضوعنا الا واحدة من هذه

(17) CL. Plut., Alex., 27, 4 ; Curtius, IV, 7, 26.

(18) Arr., III, 2, 1 - 2 ; Strab., XVII, 43.

(19) Arr., III, 2, 3 - 7.

الظواهر ، وهي التي تتمثل في أن الاسكندر اختار من بين المصريين حاكمي الوجهين البحري والقبلي (٢٠) . ولاشك في أن هذا أمر جدير بالملاحظة .

وعندما فرغ الاسكندر من مهامه في مصر غادرها في ربيع عام ٣٣١ قاصدا بلاد ما بين النهرين ، حيث أوتي في شهر أكتوبر من العام نفسه في موقعة جاو جميلا نصرا حاسما (٢١) كشف ألامه أهم مراكز الامبراطورية الفارسية ، فزحف على بابل . وما أن دخل الاسكندر بابل حتى اتخذ خطوتين لهما دلالتهما على فلسفته السياسية . والخطوة الأولى هي أنه ألغى نظم أجزر كسيس الظالمة وأعاد كل الأضاع البابلية التقليدية الى ما كانت عليه . والخطوة الثانية هي أنه أقام على بابل واليا فارسيا يدعى مازايوس ، كان قد اكتسب تقدير الاسكندر بما أظهره من بسالة وكفاية في محاربته قبل أن يستسلم له . ولم يكن مازايوس الفارسي الوحيد الذي عينه الاسكندر واليا على إحدى ولايات الامبراطورية الفارسية بعد التغاب على قواتها . فقد سجل التاريخ أنه عين ثمانية عشر واليا فارسيا (٢٢) .

ومن بابل تقدم الاسكندر الى سوسا ثم برسبوليس (أوائل عام ٣٣٠) ، حيث ارتكب العمل التخريبي الوحيد في اثناء الحرب ، وهو احراق قصر أجزر كسيس (٢٣) . وتوحى القرائن بأن الاسكندر قد قصد من وراء ذلك تحقيق هدفين ، أحدهما هو ارضاء الاغريق والبابليون لأن أجزر كسيس كان قد ارتكب في بلادهم تخريبا بشعا ، والهدف الآخر هو أن يعلن للعالم بوجه عام وآسيا بوجه خاص زوال حكم الاخمينيين .

(20) Arr., III, 5, 2.

(21) Gaugamela : Plut., XXXI, 3 ; Arbela .

(22) Arr., III, 16, 3 - 5 ; Curt., V, 1, 44.

(23) Tarn, Alexander, I, 1956, p. 137.

(24) Arr., III, 16, 6 - 18, 12. Plut., XXVIII ; Curt., V 7, 3 - 12.

ومن برسبوليس دخل الاسكندر ميديا محاولا اللحاق بدارا ،
فزحف على خصمه بسرعة مذهلة ، لكنه عندما وصل الى شاهرود وجد
أن رجال دارا قد طعنوه طعنات نجلاء برماهم وتركوه يحتضر
وفرو الى باكتريا ناجين بأنفسهم ، فلم يكن من الاسكندر الا أنه خلع
عباءته القرمزية وغطى بها جثمان خصمه وأرسله ليُدفن في
مقبرة الملوك في برسبوليس ^(٢٥) (يولية عام ٣٣٠) .

وبمصرع دارا وبحق الفتح أصبح الاسكندر الملك الاكبر ، وتبعاً
لذلك فإنه أصبح يعتبر من حقه معاملته كل من يقاومه معاملة
العصاة الخارجين على مليك البلاد . ولذلك فإن الولاة الذين قدموا
له فروض الطاعة عفا عنهم وثبتهم في مناصبهم . وأما أولئك الذين
قاوموه ووقعوا في الاسر ، فإنه أعدهم . ويتصل بموضوعنا اتصالاً
وثيقاً أنه منذ مصرع دارا دأب الاسكندر في المناسبات الرسمية على
ارتداء الثياب الفارسية واتباع المراسم الفارسية . ويبدو أن
سياسة الاسكندر الفارسية كانت الباعث على المؤامرة التي دبرت
لاغتيال الاسكندر وكشف عنها في خريف عام ٣٣٠ حين كان الاسكندر
في فرادا بولاية درانجيانا . وبالرغم من أن فيلوتاس بن بارمانيون كان
قائد رفقاء الاسكندر ، أى قائد الحرس الملكي ، وكان على علم
بالمؤامرة ، فإنه كتم خبرها عن الاسكندر لكن مصدراً آخر أنبأ بها ،
فقام الجيش بمحاكمة فيلوتاس وقرروا اعدامه ونفذ فيه الحكم ^(٢٦) .

ومما يتصل بموضوعنا أيضاً أنه عندما اجتاح الاسكندر سوجديانا،
كان من بين أسراه نبيلة فارسية تدعى روكساني (Roxané) وقد
خطأ الاسكندر عندئذ خطوة بالغة الدلالة على سياسته ازاء الفرس
وهي السياسة التي رأينا بعض ظواهرها وسنرى غيرها تباعاً . وهذه

(25) Arr., III, 19, 1 - 22, 2 ; Plut XLIII ; Curt., V, 13, 15 - 25.

(26) Arr., III, 26 ; Plut, 48 - 49 ; Curt., VI, 7 ff.

الخطوة أن الاسكندر الفاتح المقدوني والقائد الأعلى للعصبة الاغريقية ورافع لواء الحضارة الاغريقية ، تزوج روكسانى الأسيرة الفارسية (٢٧) فى أواخر عام ٣٢٨ •

وبعد ذلك عاد الاسكندر الى مدينة باكترا ليعد عدته لغزو الهند • ويتصل بموضعنا مما قام به فى اثناء وجوده فى هذه المدينة أمران جديران بالملاحظة : واحدهما هو أنه وضع الترتيبات لتعليم ٣٠.٠٠٠ شاب من الوطنيين اللغة الاغريقية وتدريبهم على استخدام الاسلحة المقدونية (٢٨) • والآخر هو أنه قرر فى ربيع عام ٣٢٧ أن يرعى الجميع — لا الفرس وحدهم — العادة الفارسية التى كانت تفرض السجود (proskynésis) للملك على كل من يتقدم اليه • وقد أطاع المقدونيون الأمر صاغرين وان كان أحد القواد غد أعرب عن سخريته من هذا المشهد بالضحك ملء شذقيه • وعندما جاء دور الفيلسوف والمؤرخ قاليستينيس (ابن اخ أرسطو) اعترض على السجود طالباً الى الاسكندر أن يقصره على الآسيويين ، فاستجاب الاسكندر الى ذلك (٢٩) •

ويرى بعض الباحثين (٣٠) أنه وان لم يكن السجود يعنى عند الفرس أكثر من الاعراب عن الاجلال والتبجيل نحو صاحب العرش دون أن ينطوى ذلك على أى معنى من معانى العبادة ، الا أن الاسكندر كان يدرك أن الاغريق والمقدونيين سيعتبرون السجود له بمثابة تأليههم اياه • ولما كان الأمر بالسجود يشمل الاغريق والمقدونيين والفرس على السواء ، فلا بد من أن ذلك كان تمهيداً — وليس مجرد جس النبض — لاقامة الاسكندر نفسه الها عاما للامبراطورية ، وذلك

(27) Arr., IV, 19, 4 - 5 ; Plut., XLVII, 4 ; Curt., VIII, 21 - 29.

(28) Plut., XLVII, 3, Curt., 8, 51.

(29) Arr., IV, 102 - 12, 5 ; Curt., 8, 5, 6 ff.

(30) e.g. Jouguet, Trois Etudes. pp. 32 ff. ; Tarn, Alex., 1948, I, pp. 79 - 80, II, pp. 359 ff.

ليكفل تحقيق سياسته الهادفة الى مزج عناصر الامبراطورية ،
وليضفى صبغة شرعية على سلطته المطلقة • بيد أنه ازاء معارضة
قالسثنييس وغيره لهذه الخطوة بسبب ما كانت تتم عنه من التآليه ،
ألغى الاسكندر أمره بالسجود له وعدل عن اقامة نفسه ألها عاما
لامبراطوريته •

ومع احترامنا وتقديرنا لبحوث أصحاب هذا الرأى فاننا
لا نستطيع قبوله ، وذلك استنادا الى : أولا — أن قاليسثنييس — وهو
أكبر المعارضين على السجود وأعلام صوتا — كان هو نفسه — يروج
بحماس شديد لألوهية الاسكندر ، بدليل ما ضمنه كتابه عن الاسكندر
وأعماله ، وهو الكتاب الذى نشر قبيل اعدامه وورد فيما تبقى
لنا منه (٣١) :

(أ) ان وحى أبولو فى ديدوما (Didyma) تحدث ثانية بعد
صمت طويل ليعان أن الاسكندر « ابن زيوس » • ومن أنجلى أن
قالسثنييس حرف هنا لقب « ابن آمون » الذى خلعه على الاسكندر
كبير الكهنة معبد الوحى فى سيوة بوصف الاسكندر فرعون مصر ،
وأن هذا التحوير كان متعمدا بقصد ادخال نبوة الاسكندر الالهية
فى نطاق الدين الاغريقى •

(ب) أن المعبرة عن النبوءات فى وحى أروثراى (Erythrae)
أكدت أصل الاسكندر السماوى •

(ج) أنه فى أثناء سير الاسكندر عند سفح جبل قليماكس على
ساحل بامغوليا « تعرفت الأمواج ذاتها على مولاها وسجدت له » •

(31) Cullisthene, F. Jacoby, F. Gr. H., II, No. 142, fr. 14 =
Strab., XVII, 1, 43; fr. 31.

وهذا هو تفسير قالسثنييس لما حدث اثناء مرور الاسكندر بالطريق الساحلى عند سفح جبل قليماكس ، ذلك أنه فى هذا المكان بالذات اذا كانت الرياح تهب من الشمال فانه كان يتييس اجتياز هذا الطريق ، وأما اذا كانت الرياح تهب من الجنوب فان الامواج كانت تغطى هذا الطريق وتحول دون اجتيازه . وقد كانت الرياح تهب من الجنوب وفجأة غيرت اتجاهها عند اقتراب الاسكندر من ذلك المكان (٣٢) .

وثانيا — أن قالسثنييس نفسه لم ير فى السجود أكثر من عادية أسيوية رأى فى اتباعها اهدار لكرامته بوصفه اغريقيا وتلميذا لأرسطو يزدري الاسيويين وعاداتهم ، فطلب الى الاسكندر « أن يقصر هذه العادة على الاسيويين » .

ثالثا — أن تأليه الممتازين من البشر لم يكن أمرا دخيلا على الاغريق ولا كريها اليهم ولا غريبا على أبرز المفكرين السياسيين المعاصرين ، بدليل وفرة ما لدينا من أمثلة لهذا التأليه ، ودعوة أيسقراط لفيليب الثانى الى تأليه نفسه بعد أن يقهر الفرس (٣٣) ومناداة أرسطو بأن تأليه المبرزين لم يكن أكثر مما تتطلبه العدالة الانسياسية (٣٤) وفضلا عن ذلك فانه من المسلم به أنه فى عام ٣٢٤ طلب الاسكندر الى مدن عسبة قورنثة أن ترفعه الى مصاف الآلهة ، وأن هذه المدن استجابت الى ذلك الطلب ، على نحو ما سيرد ذكره فى موضعه ونتبين منه أن الهدف من هذا التأليه كان هدفا ثانويا لا يمكن مقارنته بما كانت تستهدفه اقامة الاسكندر الها عاما للامبراطورية . واننا اذ نرفض ذلك التأويل لمسألة السجود ، نعتقد أن الاسكندر كان يعتبر اقامة نفسه الها عاما للامبراطورية الدعامة الاساسية للاحتفاظ

(32) Cf. Plutaarch, XVII, 3 - 4.

(33) Isoc., Epist., 3.

(34) Arist., Pol., III, 13, 1284 A ; cf. Pol. 303 B.

بوحدة الامبراطورية ، وأنه وقد أثبت في معبد آمون بـسيوه أصله السماوى تمهيدا لتأليه نفسه رأى في حكمته ارجاء اقامة تلك الدعامة الأساسية الى أن يتم بناء امبراطوريته ويضع نظا مـحكمها ، غير أن موته المبكر اختطفه قبل أن يتاح له ذلك •

وعندى أن الباعث على الاعتراض على السجود ، هو أنه قد هال قاليسثينيس وغيره من رفاقه ما لاحظوه من أن الاسكندر لم يكتف باقلامته ولالة من الفرس بل أنه منذ وفاة دارا أخذ يتشبه بملوك الفرس فى المناسبات العامة بارتدائه الثياب الفارسية واتباعه المراسم الفارسية ، ثم شفع ذلك بزواجه من فارسية ، واعداده العدة لتدريب عدد كبير من شباب الفرس على النهج المقدونى ، والآن أراد أن يفرض على الاغريق والمقدونيين عادة فارسية ، فتنصروا أن الاسكندر أخذ يتحول الى ملك فارسى ، ورأوا أن من واجبه وقفه عند حده قبل أن يستفحل أمره ، وأن دل هذا على شىء فهو يدل على أنه كان يدق على رفاق الاسكندر فهم المغزى الحقيقى لتصرفاته ، مما تسبب له فى كثير من المتاعب والمخاطر ، وهى التى مر بنا ذكر بعضها وسيأتى ذكر بعضها الآخر •

وسنعرض فورا المؤامرة فتيية القصر (٣٥) وهى التى جاءت فى اعقاب مسألة السجود • وهذه المؤامرة الفاشلة لا تستمد أهميتها فيما يتعلق بموضوعنا من مجرد أن جماعة من شباب النبلاء المقدونيين ، وكانوا قد تربوا فى القصر الملكى ، تأمروا على حياة مليكهم ، وانما من دلالة ما أثبتته التحقيق فى هذه المؤامرة • ذلك أنه تكشف أن قاليسثينيس فى احاديثه مع فتيية القصر كان يـجبـذ قتل الطغاة • وأن هذا التحبيـذ هو الذى أوحى الى هؤلاء الشبان بالتآمر على اغتيال الاسكندر • وهذا بليغ فى دلالته على أن رجال الاسكندر — حتى

أنضجهم عقلا واوسعهم أفقا وأكثرهم ثقافة مثل قاليستينيس لم يكن في وسعهم فهم مسلكه واتجاهاته فتصوروا أنه تحول الى طاغية شرقي ، وهو ما يؤكد في نظرنا أنه لا الاسكندر قصص من وراء قرار السجود رفعه الى مصاف الآلهة ، ولا الذين من حوله رأوا في ذلك القرار أكثر من استكمال صفات الملك الفارسي المستبد .

ونتيجة لثبوت تحريض فاليستينيس على القتل وأن لم يثبت اشتراكه في المؤامرة أو علمه بها ، فانه أعدم . وقد دفع الاسكندر ثمنا باهظا لاعداد قاليستينيس ، ذلك أن زملاءه من الفلاسفة المشائين مثل ثيوفراستوس وديميتريوس الفليري وغيرهم ^(٣٦) انتقوا له بنشر تلك الصورة المشوهة للاسكندر ، وهي التي نقدها بلوتارخ ^(٣٧) بحماس شديد . ومع ذلك فان التاريخ لم يستطع التحرر منها الا بعد أمد طويل ، صورة الطاغية الذي أحرز انتصاراته بفضل الحظ السعيد ، وقضى عليه آخر الأمر اغرقته في الاعتماد على هذا الحظ .

واذا كان الاسكندر قد استجاب الى رغبة رجاله فعادل عن الأمر بالسجود له ، لأنه كان لا يتمشى مع نهجه أن يفرض عليهم وجهة نظره قسرا ، فان التأمر على حياته لم يصرفه عن السير قدما في سياسته نحو الفرس . ذلك أنه قبل أن يغزو الهند خطا خطوتين أخريين ^(٣٨) تطبيقا لهذه السياسة . واحدى هاتين الخطوتين هي أنه اذ وضع فصيلة الفرسان الملكية تحت قيادته الشخصية

(36) Theophr. : Jacoby, II, 124, 19 ; see also Cic., Tusc., III, 21 ; Demetr. : Polyb., XXIX, 21, 1 - 9.

وتطالع او في صورة للمشائين عن الاسكندر فيما كتبه كوينتوس قوريتوس رونوس . انظر المصادر في ذيل هذه الدراسة .

(37) Plut., De fortuna Alexandri, I.

(38) Tarn, Alex., I. pp. 83 - 4, 92 - 3 ; II, App., I, IV, pp. 164 ff.

وأصبحت تدعى منذ ذلك الوقت « الحرس » (agéma) ، أدمج فيها أبناء فئة قليلة من نبلاء الفرس . والخطوة الأخرى هي أنه أعاد كل فرسانه البلقانيين الى بلادهم ما عدا التراقيين الذين كانوا في ميديا ، واستبدل بالذين أعادهم فرسانا من الايرانيين الشرقيين ، وهم الذين كانوا قد حاربوه ببسالة وكفاية قبل اخضاع ولايتهم ، ولم يلبثوا أن اثبتوا جدارتهم وحسن ظن الاسكندر بهم في غزو الهند ، مما زاده يقينا على يقين بأن معيار الناس لا يجب أن يكون جنسهم وانما عملهم .

ولا يمكن مدلول الهند عند الاسكندر حين غزاها أكثر من اقليم البنجاب ، بل لم يكن مدلول آسيا عنده وعند معاصريه جميعا أكثر من امبراطورية دارا الأول . ولما كانت هذه « الهند » جزءا من امبراطورية هذا العاهل ، فان قيام الاسكندر بغزوها كان أمرا محتوما لاستكمال فتح هذه الامبراطورية . وعندما بلغ الاسكندر الأطراف الشرقية لاقليم البنجاب أذعن للطلائع ولرغبة جنوده في العودة .

وفي ربيع عام ٣٢٤ وصل الاسكندر الى سوسا حيث بلغه أن بعض الولاة الفرس كونوا لأنفسهم فرقا خاصة من المرتزقة ، وأن بعضا منهم وكذلك بعضا من القواد المقدونيين عاثوا في البلاد فسادا بما ارتكبوه من شتى المظالم ، فأمر بتسريح الفرق الخاصة وأعدم المسيئين جميعا واستبدل بالفرس الذين أعدمهم حكاما مقدونيين (٣٩) .

وبعد ذلك أقام الاسكندر حفلا كبيرا احتفاء بفتح الامبراطورية الفارسية . وكان أبرز مظاهر هذا الحفل (٤٠) زواج الاسكندر من

(39) Arr., VI, 27, 1 - 5 ; 30 ; Curt., X, 1 - 9, 39 - 40, 45 ; Tarn, I, pp. 109 - 10.

(40) Arr., VII, 4 ; Diod., XVII, 105 ; Plut., LXX, 2.

بارسينى (Barsiné) ابنة دارا وزواج ثمانية من رفاقه و ١٠.٠٠٠ من جنوده من زوجات فارسيات • وبطبيعة الحال لم يكن زواج الاسكندر من ابنة الملك الفارسى واصهار قواده الى عدد من الأسر النبيلة الفارسية واتخاذ فريق كبير من جنوده زوجات فارسيات ، أو بعبارة أخرى لم يكن اصهار القاهرين الى المقهورين فى هذه المناسبة بالذات ، مناسبة الاحتفال رسميا بفتح الامبراطورية الفارسية ، أمرا جاء عفوا الخاطر دون أن يكون له معنى أو قصد ، وانما كان أمرا متعمدا هدف الاسكندر من ورائه الى ازالة الفوارق بين الغالب والمغلوب والتأليف بين قلوب الفرقين بربطهما برباط مقدس^(٤١) ويتجلى مما حدث بعد وفاة الاسكندر أن كثيرين من أولئك الذين اتخذوا لأنفسهم زوجات فارسيات فى ذلك الحفل لم يفعلوا ذلك الا ارضاء للاسكندر دون أن يدركوا ما كان يهدف اليه أو على الأقل دون ان يشاركوه الرغبة فى تحقيق ذلك ، اذ أنهم لم يلبثوا أن طلقوا هؤلاء الزوجات بعد وفاة الاسكندر •

وينهض دليلا بينا على قصور الاغريق والمقدونيين عن فهم مقاصد الاسكندر أن القلق الذى كان يساورهم من جراء تصرفاته التى جعلته يبدو لهم وكأنه أصبح ملكا فارسيا أكثر منه مقدونيا — أن هذا القلق لم يلبث أن تفاقم تفاكما شديدا وان لم يبلغ بعد مبلغ الثورة • وقد تفاقم هذا القلق عندما وفد حكام المدن ومعهم الثلاثون ألف شاب وطنى الذين كانوا قد دربوا على النهج المقدونى لادماجهم فى الجيش^(٤٢) • لكن الاسكندر لم يعر ذلك انتباها ومضى فى طريقه لا يلقى على شيء •

وفى سبتمبر عام ٣٣٤ أمر الاسكندر المدن الاغريقية أعضاء

(41) Cg. Curt., X, 3, 12.

(42) Arr., VI, 1 - 2 ; Plut., LXXI, 1.

عصبة قورنثة (٤٣) بأن تسمح للمنفيين من مواطنيها بالعودة اليها أملا في أن يحقق بذلك هدفين ، وأحدهما هو القضاء على ما كان يتهدد الأمن والسلام في بلاد الاغريق الاوروبية من وجود عدد كبير من المنفيين على استعداد لبيع خدماتهم لمن يرغب في ذلك . وهذا الاجراء يتمشى مع ما قضى به من تسريح فرق الولاة في بلاد الفرس . والهدف الآخر هو القضاء على الصراع الحزبى في بلاد الاغريق الاوروبية وما كان يصاحبه من نفى المواطنين ومصادرة أملاكهم . وهذا يماثل موقفه من بلاد الاغريق في آسيا الصغرى . وقد ضرب الاسكندر المثل بنفسه لادن العصبة ، اذ أن خصومة الديمقراطيين الذين كان أنتيباتروس قد قضى بنفيهم كانوا من بين المنفيين الذين أمر الاسكندر بعودتهم الى مواطنهم . هذا الى أنه لما كان أنتيباتروس قد دأب على التدخل في شئون المدن الاغريقية ، فأصبحت هذه المدن تبغضه ولا تثق فيه ، فان الاسكندر قرر أن يستبدل به قراتروس (٤٤) . وهذا كله يدل على أنه اذا كانت مقتضيات ظروف الحرب مع الفرس قد جعلت الاسكندر يبيح لأنتيباتروس التدخل في شئون المدن الاغريقية فانه بعد زوال تلك الظروف قرر الاسكندر أن يهيىء الأسباب لكى تمارس المدن الاغريقية حياتها السياسية وفقا للنظم الديمقراطية المألوفة لديها .

واذا كان أمر الاسكندر باعادة المنفيين تصرفا سياسيا حكيما ، فانه مع ذلك كان يعتبر اعتداء على ميثاق عصبة قورنثة ، فقد مر بنا أن هذا الميثاق كان يحظر التدخل في الشئون الداخلية للدول أعضاء هذه العصبة ، وذلك اذا صدر هذا الأمر من الاسكندر بوصف كونه رئيس هذه العصبة . ولما كان رأى الاسكندر قد استقر على أن

(٤٣) عن هذا الأمر وكذلك طلب الاسكندر الى هذه المدن أن تعبد على نحو ما سيجى ذكره ، انظر :

Tarn, I, p. 111 ff ; II, App. 22, III, pp. 370 ff.

(44) Arr., VII, 12, 4.

يطوى صفحة الماضي وأن يبدأ صفحة جديدة ، فإنه لكى يحق له التدخل فى شئون أعضاء العصبة دون أن يعتبر معتديا على ميثاق العصبة يرجح الباحثون أن يكون الاسكندر قبل اصداره الأمر بعودة المنفيين قد طلب الى دول العصبة أن ترفعه الى مصاف الآلهة ، وذلك لأن الاسكندر بوصف كونه رئيس العصبة مقيد بميثاقها ، واما الاسكندر بوصف كونه الها فلا حد لسلطته • وعدم تردد مدن العصبة فى تأليه الاسكندر ، برغم أن بعضها مثل أثينا كانت تكن له عدااء شديدا ، يؤيد ما سبق ذكره من أن معارضة الأمر بالسجود له لم يكن مبعثها أن الاغريق كانوا يعارضون تأليهه • ولا جدال فى أن التجاء الاسكندر الى التأليه بصدد مسألة اعادة المنفيين ينهض دليلا على رغبته فى اظهار احترامه لميثاق عصبة قورنثة ونظم المدن الاغريقية بعد زوال ظروف زوال الحرب ومقتضياتها ، والا لتدخل عندئذ تدخلا سافرا على نحو ما كان أتيناuros يفعل فى الماضى •

وأخيرا — بعد ذلك بقليل — حين كان الاسكندر فى أوبيس (٤٥) — وقع أمر جل ، عندما قرر الاسكندر أن يعيد الى مقدونيا من يرغب فى ذلك من قدامى محاربيه الطاعنين فى السن ، فقد تأكدت بذلك وساوس المقدونيين وظنوا أن الاسكندر كان ينشد اقضاءهم عنه بالتدريج ، ونقل مقر الامبراطورية من مقدونيا الى آسيا ، تمشيا مع سياسته المشربة بروح العطف نحو الاسيويين • وتبعنا لذلك فان رجال الجيش جميعا ، باستثناء الحرس الملكى والفرق الفارسية ، ثاروا على الاسكندر وطالبوه باعادتهم جميعا الى مواطنهم • فتملك الاسكندر غضب شديد ، وبعد أن أمر رجال الحرس بالبقاء القبض على زعماء الفتنة ، وقف فى الجيش خطيبا وألقى خطبة نارية ختمها بتسريح الجيش من خدمته •

(45) Arr., VII, 8 - 12, 4 ; Diod., XVII, 109, 1 ff. ; Plut., LXXI, 2 - 5 ; Curt., V, 2, 8 ff. ; Tarn, I, pp. 115 - 6 ; II, App. 15 and App. 25.

وبعد اعتكاف الاسكندر يومين ، اجتمع بكبار الفرس وشرع فى تشكيل جيش من الفرس ، فأسقط فى يد المقدونيين والاغريق وندموا على فتنتهم ، ولذلك فانهم تجمعوا حول مركز قيادة الاسكندر ليكون ويستعطفون الى أن خرج اليهم • وعندئذ عبر له مقدونى يدعى قاليينيس عن سبب غضبهم بما معناه أن الاسكندر والى عطفه على الفرس الى حد أنه منح بعضهم لقب « قريب الملك » (Syngenes) مما كان يسمح لهم بتقبيله ، فى حين أنه لم يحظ أحد من محاربيه المقدونيين بمثل هذا الشرف • فلم يكن من الاسكندر الا أنه قاطعه بقوله « ولكننى اعتبركم جميعا أقربائى ومنذ اليوم سأدعوكم كذلك » • فتقدم منه قاليينيس وقبله وحذا حذوه كل من أراد ذلك • وهكذا عاد الوفاق والوئام بين الاسكندر وبين رجاله المقدونيين والاغريق •

واحتفاء بذلك أقام الاسكندر حفلا كبيرا حضره — وفقا للروايات المتواترة قديما — ٩٠٠٠ شخص • وتتصل بموضوعنا مما جرى فى هذا الحفل ثلاثة أمور ، واحدها هو أن الاسكندر قضى بأن يجلس الى مائدته جنبا الى جنب مقدونيون واغريق وفرس وممثلون لكل جنس فى امبراطوريته • والأمر الآخر هو أنه قبل نهاية الحفل اعترف كل الجالسين الى مائدة الاسكندر نبيذ القرابة من كأس كبيرة كانت يوما حلكا لدارا ، وهى الكأس التى وصفها اراتوستنيس القورينى بأنها « كأس المحبة والسلام بين الامم » (٤٦) ، وقدم كل الحاضرين القرايين يتقدمهم كهنة لا من الاغريق فحسب بل أيضا من الفرس • والأمر الثالث هو أنه بعد تقديم القرايين كان مسك الختام دعاء الاسكندر أن يعم السلام الدنيا ، وأن يكون المقدونيون والاغريق والفرس وكل شعوب الامبراطورية شركاء متساوين فيها ، وأن تعيش شعوب الامبراطورية فى وفاق ومحبة (hommonia) •

ومن بين ثنايا هذا الدعاء وتصرفات الاسكندر واحدا نلّو آخر
نستطيع أن ننفذ الى فلسفة الاسكندر السياسية وأن نحدد ما . وانه
لمن حق الباحث المتأمل أن يتساءل : اذا كان الاسكندر صادقا في دعائه
وكان حقا محبا للسلام ، فلماذا اذن أخضع الاغريق وشن على
الفرس حربا ضروسا لا هوادة فيها ؟

وأما لماذا أخضع الاغريق ، فانه في ضوء ما أوردناه يتضح أن
الاسكندر لم يبتغ من وراء ذلك تحقيق هدف أبيه ، أى بسط سيطرة
مقدونيا على بلاد الاغريق من أجل حب السيطرة لذاتها ، وانما من
أجل تحقيق هدف أسمى من ذلك وأنبى وأوسع رحبا وأبعد أثرا وهو
القضاء على الداءين الوبيلين اللذين كانا ينخران في عظام الدول
الاغريقية ، وأعنى الانفصالية والتناحر الحزبى وبذلك تتوافر الاسباب
ويتهيأ المناخ لكى يسود السلام والاخاء بين الاغريق ويمارسون
نظام الحكم الديمقراطى العزيز عليهم ممارسة سليمة ، فتحظى الحضارة
الاغريقية بالجمال الخلق بها .

ورب معترض يقول ان الاسكندر كان لايؤمن بالديمقراطية ، فهو
من ناحية سمح لأنتيباتروس بأن يتبع مع أغريق بلاد الاغريق
الاوروبية أساليب مجافية للديمقراطية ، ومن ناحية أخرى فهو لم
يؤيد الديمقراطية مع اغريق اسيا الصغرى الا لأن ذلك كان يساعده
على هزيمة الفرس . وهذا الاعتراض — على حد قول رجال
القانون — اذا كان مقبولا شكلا فهو مرفوض موضوعا ، ذلك أن لب
الموضوع ومناط البحث هنا ليس ايمان الاسكندر أو عدم ايمانه
بالديمقراطية ، وانما ايمانه بأن يوفر للاغريق ، كما وفر لكل
شعب من الشعوب الخاضعة له نظام الحكم الذى كان هذا الشعب
يألفه ويعتز به ويرتضيه . ولاشك فى أن أكثر الاغريق كانوا يألفون
النظام الديمقراطى — ففضاضا كان أو معتدلا — ويعتزون به ويرتضونه
ولاشك أيضا فى أن أنتيباتروس — بموافقة الاسكندر — كثيرا ما اعتدى

على هذا النظام في بلاد الاغريق الاوروبية ، ومرد ذلك — على نحو ما أوضحناه في حينه — الى مقتضيات ظروف الحرب ، بدليل أنه من أن زالت تلك الظروف حتى عمل الاسكندر على احترام الأوضاع الديمقراطية في بلاد الاغريق الاوروبية . ولاشك كذلك في أن تأييد الاسكندر للديمقراطية في المدن الاغريقية بآسيا الصغرى كان اجراء سياسيا ناجحا ، لكنه لو لم يكن الاسكندر مؤمنا بأن تتمتع تلك المدن بالنظم المحببة اليها لاستبدل بها بالديمقراطية ما كان يشاء من نظم بعد زوال الاسباب التي من أجلها أيد أصلا الديمقراطية . ومع ايمان الاسكندر بأن تتمتع المدن الاغريقية جميعا بالنظم التي كانت ترتضيها ، فانه كان يؤمن أيضا بأنه لم يكن معنى ذلك أن تستمر تلك المدن في الصراع مع بعض هابعضا ، أو أن تستمر الاحزاب في تناحرها داخل تلك المدن . ومن أجل ذلك وضع الاسكندر الاغريق تحت اشرافه ، وتدخل لوقف اضطهاد غير الديمقراطيين في آسيا الصغرى ولاعادة الديمقراطيين المنفيين من مدن عصبة قورنثة . وقد رأينا كيف أنه طلب الى هذه المدن أن تؤله لى يحق له التدخل في شئونها كلما اقتضت الظروف ، وذلك من أجل وضع الأمور في نصابها دون أن يعتبر معتديا على ميثاق العصبة .

وأما لماذا حارب الاسكندر الفرس ، فانه يجب أن نشير أولا الى السبب الرسمي والى آراء أعظم المفكرين السياسيين الاغريق في هذا الصدد . وقد كان السبب الرسمي هو الانتقام من الفرس لاجترائهم على غزو مقدونيا وبلاد الاغريق وانزالهم أضرارا فادحة بها . بيد أن استقراء الاحداث من مختلف العصور يدل على أن الاسباب الرسمية ليست دائما الاسباب الحقيقية ، فهل هذا ينطبق على هذه الحالة أيضا ؟

هناك من القرائن ما قد يوحي بأن السبب الرسمي كان السبب الحقيقي ، فأولا — أن الاسكندر ذكر هذا السبب في رده على

دعوة دارا التي ناشد فيها الاسكندر عقد أواصر التحالف والمصاهرة معه .

وثانيا — أن هذا السبب يتفق والآراء السائدة بين اغريق القرن الرابع قبل الميلاد ، فقد كان أفلاطون يعتبر غير الاغريق برابرة وأعداء بسليقتهم للاغريق ، وأنه من الواجب محاربتهم واستعبادهم بل استئصال شأفتهم اذا أمكن ذلك ^(٤٧) . وكان أيسقراط أيضا يعتبرهم أعداء طبيعيين ويدعو بحماس الى حرب انتقامية ضد الفرس ^(٤٨) . وكان أرسطو يعتبر هذه الحرب حربا عادلة ^(٤٩) ، ونصح تلميذه الاسكندر بأن البرابرة غير جديرين بأن يمارسوا شئون الحكم ويجب أن يعاملوا معاملة العبيد ^(٥٠) .

ولكن أكانت حقاً الحرب التي شنّها الاسكندر على الفرس حرباً انتقامية ؟ وهل تأثر الاسكندر بأفكار عصره بل بأفكار أستاذه الفيلسوف الجليل أرسطو ، وعامل المصريين والبابليين والفرس معاملة العبيد ؟ ان العرض الموضوعى الذى بسطناه لمسلك الاسكندر فى أثناء هذه الحرب يدل بجلاء لا لبس فيه ولا غموض على :

أولاً — أنه لم تتمكّل الاسكندر أية رغبة فى الانتقام ، فهو باستثناء حرق قصر اجزركسيين ارضاء للاغريق والبابليين ، لم يرتكب أى عمل من أعمال الغزاة الراغبين فى الانتقام . وحسبنا الإشارة الى أنه ما أن علم بتخريب قبر قورش حتى أمر باصلاحه على الفور ^(٥١) .

(47) Plato, Rep., 470 c - 471 A.

(48) Isocr., Panegr., 184 ; Panath., 163.

(49) Arist., Pol., I, 8, 1256 b, 25.

(50) Fr., 685 Rose = Plut., Alex. Fort., 1, 329 ; Cf. Pol., I, 2, 1252 G 9, III, 14, 1285 a, 20.

(51) Arr., VI, 29, 4 - 8 ; Strab., XV, 3, 7 ; Curt. X, 1, 30 ff.

وثانياً — أنه كان يمتلك الاسكندر تصميم أكيد على دك دعائم الامبراطورية الفارسية ، بقدر ما كان يمتلكه ايمان عميق بأنه اذا كانت الحضارة الاغريقية قد بلغت مستوى رفيعا لم ترق اليه الحضارة الانسانية من قبل ، فان المصريين والبابليين والفرس كانوا جميعا أصحاب حضارات زاهرة لم تكن أعرق من حضارة الاغريق فحسب ، بل أسهمت في بناء الحضارة الاغريقية مما كان ينتفى معه ازدياء تقاليدهم ومعاملتهم معاملة العبيد •

واذ ضرب الاسكندر بآراء أرسطو عرض الحائط ، ضرب للمقدونيين والاغريق المثال بنفسه ليحتذوا حذوه في احترام الشرقيين وعاداتهم ، ويفهمهم أن أساس التفرقة بين الناس في المعاملة هو فضلهم وليس جنسهم • ذلك أنه في مصر أظهر اجلاله لديانتها واتخذ صفات الفراعنة واختار من المصريين حاكمي الوجهين البحري والقبلي • وفي بابل ألغى نظم اجزر كسيس الظالم واعاد الى البابليين أوضاعهم التقليدية • وفي بلاد الفرس اتخذ صفات ملوكهم وملابسهم ومراسمهم ، وعين ولاية من الفرس ، وأدمج الكثيرين منهم في صفوف جيشه ، وأصهر اليهم وحث رجاله على الاقتداء به في ذلك •

ومع تقدير الاسكندر للحضارات الشرقية ، فانه كان يدرك أن نجمها قد أفل وأن الوقت قد حان لتحل الحضارة الاغريقية مكانها ، لكنه كان لا يقل عن ذلك ادراكا أن تحقيق هذا الهدف كان يتطلب أمدا طويلا ، وأن استخدام القوة كان لا يمكن أن يجدى فيه فتيلا • ومن ثم فانه أنشأ عددا كبيرا من المدن يتألف سكانها من الاغريق والشرقيين لتكون في الوقت نفسه مراكز اشعاع تنشر الحضارة الاغريقية بين ربوع الشرق ، وكذلك مراكز صهر يمتزج فيها الاغريق والشرقيون ، فيساعد ذلك كله على نشر الحضارة الاغريقية بين الشرقيين ، وعلى ازالة العداءة والبغضاء بين هؤلاء وهؤلاء ، وعلى دعم روابط الاخاء والمساواة بين الفريقين • واقد كان ذلك كله أمرا جديدا غريبا على

الناس ، بعيدا عن أفق تفكيرهم ، فلا عجب أن دق فهمه عليهم بل حتى على أرسطو الذى انقطعت صلته بالاسكندر منذ أن أخذ هذا التلميذ العملاق يتخطى نطاق تفكير أستاذه ويسفه تعاليمه بسلسلة متتابعة من التصرفات رأى فيها الاسكندر خير وسيلة للتبشير بأرائه والأخذ بها ، فالشعوب لا تعلم قسرا وانما بالأمثلة العملية يضربها قاداتها •

ورفض اعتبار السبب الرسمى السبب الحقيقى لمحاربة الاسكندر الفرس خليق بأن يثير تساؤلين ، وأحدهما هو لماذا اذن ذكر الاسكندر ذلك السبب الرسمى فى رده على دارا ؟ من المسلم به أنه ازاء شدة اعتزاز الاغريق باستقلالهم واخضاعهم قسرا « لزعامة » مقدونيا كانوا برميين بهذه الزعامة الخائفة ، وأنه لم يكن من شأن ذلك سواء استقرار الأوضاع بين ظهرائهم فى اثناء محاربة الفرس أم تقديم الاغريق كل ما يستطيعون من مساعدة ضد « العدو المشترك » ومن الجلى أن فحوى رد الاسكندر على دارا لم يكن الا ترديدا للدعوى التى نشرها فيليب الثانى بين الاغريق عندما صمم على اخضاع الاغريق « لزعامة » مقدونيا ، وأن الباعث على ذلك فى الحالين ، أى على دعوى فيليب وعلى رد الاسكندر دارا ، كان استرضاء الاغريق ، أملا فى استتباب الأوضاع بينهم طوال « الحرب الانتقامية » وفى الحصول منهم على كل عون ممكن لضمان متابعة هذه الحرب بنجاح •

والتساؤل الآخر هو ، ألم يكن تصميم الاسكندر على دك دعائم الامبراطورية الفارسية ضربا من الانتقام لقيام الفرس بغزو مقدونيا وبلاد الاغريق وتخريبها ؟ لا جدال فى أن استمرار قيام الامبراطورية الفارسية كان يشكل خطرا على مقدونيا وبلاد الاغريق كان من الممكن أن يستفحل وتتكرر معه مآسى الماضى • وفى ضوء تصرفات الاسكندر فى اثناء محاربة الفرس وبعد قضائه على امبراطوريتهم يبدو لنا

أن الاسكندر كما كان يكره الانفصالية والصراع الحزبي بين الاغريق كان يكره كذلك استمرار العداء بين الشرق والغرب وينفر من استعلاء الغربيين على الشرقيين ، ولذلك فانه كما قرر بسط سيطرته على الاغريق قرر ايضا القضاء على الامبراطورية الفارسية ، وذلك كله ليتسنى له انشاء عالم جديد أفضل من العالم القديم بعد انزال الاغريق والفرس على السواء من عليائهم ليأخذ بيدهم وقد ظهرتهم الهزيمة من أوصارهم فيشتركوا جميعا في عصر ذهبي يتخلص فيه العالم من الصراع الحزبي وشروره ومن الحرب وويلاتها ، وتنتهي الى الأبد العداوة بين الشرق والغرب ، فيعيش الناس جميعا على قدم المساواة في كنف العدالة وفي ظل المحبة والاخاء . وقد يعتبر البعض ذلك مجرد اجتهاد في التفسير ولكنه في رأيي المعنى الواضح الذي يستشف من تصرفات الاسكندر المتتابعة وبخاصة من دعائه يوم حفل أوبيس ، ومن حفل الزفاف الكبير الذي أقيم في سوسا وكان بمثابة زفاف الشرق الى الغرب في اليوم ذاته الذي احتفل فيه رسميا بفتح الشرق .

ومما يجدر بالملاحظة أن الاسكندر شب ليجد أن الفلسفة السياسية السائدة في عصره كانت فلسفة استاذة أرسطو ، وهي التي لم يعنها اطلاقا أمر الانسانية خارج المدينة (Polis) . وكانت هذه الفلسفة تعتبر المدينة البيئة الاساسية لحياة الاغريق العامة ، والنظام الطبيعي الوحيد الذي يستطيع أن يعيش في كنفه الرجال الأحرار ، كما أن هذه الفلسفة كانت تدعو الى التمييز في المعاملة بين الاغريق وغيرهم ، بل الى اعتبار غير الاغريق برابرة ليسوا جديرين الا بأن يعاملوا معاملة العبيد . بيد أن الله عز وجل وفق الاسكندر الى أن يسمو بتفكيره فوق مستوى تفكير أرسطو ، فاعتبر أبشر جميعا أخوة متساويين لا يميز بعضهم عن بعض الا علمهم وليس جنسهم ، ونادى لأول مرة في تاريخ البشرية بالاخاء والمساواة ، لا بين أبناء

الأمة الواحدة فحسب بل بين أبناء جميع الأمم • ولم يكن هذا النداء شعارا أجوفاً للدعاية السياسية كشعار الثورة الفرنسية الذي ارتكبت تحت ستاره آلاف الجرائم ، بل كان نداء صادقاً قرن صاحبه القول بالعمل ، بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا أن الاسكندر طبقه عملاً قبل أن يذيعه جهراً •

ومما له مغزاه ودلالته أن هذا الرجل ، رسول السلام والاخاء والمساواة ، كان ملكاً منتصراً يتمتع بأكبر سلطة على ظهر الأرض ، وفي وسعه أن يفرض ما شاء من النظم ، بيد أنه في الوقت نفسه كان انساناً نبيل الفكر ، مرهف الحس ، هزت قلبه الكبير ما قاسته الانسانية المعذبة من أهوال في الماضي ، فعمل على أن يجنبها ذلك في المستقبل •

وأنه ليشير عجبنا واعجابنا أنه حين كان أرسطو لا يزال يدرس في اللوفيوم فكرة المدينة أحدث الاسكندر ثورة فكرية عظيمة في تاريخ البشرية ، ثورة لم تلبث أن اجتاحت فكرة أرسطو البالية الضيقة وأقامت على أنقاضها فكرة العالمية ، فكرة وجود عالم واحد ينعم فيه الناس على اختلاف ملهم ونظمهم بالاخاء والمساواة ، وهي الفكرة التي استوحاها زينون والرواقيون من الاسكندر ودأبوا على نشرها والترويج لها ، وعنهم تناقلتها البشرية جيلاً بعد جيل •

وان الصعاب والمتاعب التي واجهها الاسكندر ، وسهام الظنون التي رشق بها وهو نشر عقيدته بالفعل قبل القول — شأنه في ذلك شأن كل الذين يسبقون تفكير معاصريهم ويتحررون من عقال الأفكار التي تجمدت في قوالب نمطية أسبغ مرور الزمن عليها هالة من القداسة الوهمية — وان هذه الصعاب والمتاعب وسهام الظنون لتدل على صدق ادراك الاسكندر لما كان يتوقعه ، ولتفسر حرصه على تأكيد : اغريقية ، ومباركة الاله آمون لتصرفاته ، وتمتعه بصفة ترفعه فوق مستوى البشر • وان صمود الاسكندر أمام أعاصير المعارضة والتآمر

على حياته والثورة عليه — وذلك كله وسط عزلته الفكرية حتى عن أقرب المقربين اليه — لهو خير دليل على مغناء عزمته وقوة إيمانه بصدق عقيدته •

وبعد فانه ليس من الاسراف فى الرأى القول بأن قوام فلسفة الاسكندر السياسية كان ايمانه بالسلام والاخاء والمساواة بين البشر ، وبأن هذه الفلسفة تعتبر بداية عهد جديد فى تاريخ البشرية ، وبأنه اذا كان لم يقيض لهذه الفلسفة أن يتحقق ، فانها عمرت أطول مما عمرت امبراطورية الاسكندر ، وهى التى تفككت وانحلت قبل انقضاء ربع قرن على وفاته • أليس تحقيق السلام والاخاء والمساواة بين البشر جميعا هو الأمل الذى طالما راود أنبل المفكرين ومحبى الانسانية على مر العصور منذ الاسكندر حتى اليوم ؟ اليس هذا هو الحلم الذى ننشد اليوم تحقيقه لانقاذ البشرية مما يتهدها من ويلات اذا استمر أولئك السادة المتحكمون فى مصائر العالم سادرين فى غيهم ؟ أليس هذا الأمل الكبير وهذا الحلم الكبير بمثابة رجع الصدى لفلسفة الاسكندر السياسية ، وهى التى كان أخطر مواطن ضعفها وسر نكبتها بل نكبة الانسانية جمعاء الى يومنا هذا افتراضها فى الناس من الفضائل ما لا يتوافر لديهم ، واقتضاؤها منهم من التسامى والتسامح وانكار الذات ما لا يزال يعز على الناس أن يرقوا الى مستواه ، واذا جاز على هذا الاساس اعتبار فلسفة الاسكندر السياسية خيالا أو حاما ، فما أعذب هذا الخيال أو هذا الحلم ، وما أنبله ، وما أبقاء على الدهر •

المصادر القديمة

توجد قائمة كاملة بالمصادر القديمة في :

H. Berve, *Dus Alexanderriech auf prosopographischer Grundlage*,
Muenchen, 1926.

The Cambridge Ancient History, Vol. VI, pp. 590 - 1.

ومما يجدر بالملاحظة أن يستشف من المصادر القديمة ثلاثة روايات رئيسية عن الاسكندر ، نوصف احداها بأنها « جيدة » ، والأخرى بأنها « شعبية » والثالثة بأنها « عدائية » وتعتبر الرواية الاولى النص الرسمي لحياة الاسكندر وأعماله ، وذلك على أساس استقائها من السجل الرسمي والمراسلات الاصلية وما كتبه بطليموس سوتير وأريستوبولوس . وهنا تنشأ مشكلة يكاد أن يكون حلها متعذرا وهي الى أى مدى تصوير هذه الرواية او هذا النص الرسمي الحقيقة . والرواية « الشعبية » تمجد الاسكندر وتسجل التصورات والمعتقدات المتواترة عن الفاتح الكبير . وهذه الرواية مستمدة أصلا مما كتبه عن الاسكندر : قاليستينيس وبعض معاصريه مثل أونسيقريتوس وخاريس ، ثم أعطاها صيغتها الكاملة أحد مؤرخى القرن الثالث قبل الميلاد ، ولعله كان قلايتارخوس . وأما الرواية أو على الأصح الروايات « العدائية » ، فانها أخذت تتواتر تباعا منذ الهجوم الذى شنه الفلاسفة ، وبخاصة المشائين ، على الاسكندر منذ اعدام قاليستينيس .

ويمكن تقسيم المصادر القديمة قسمين رئيسيين :

أولا — المصادر المعاصرة للاسكندر . وثانيا — المصادر غير المعاصرة له :

أولا — المصادر المعاصرة :

ولم تصل اليينا من هذه المصادر الا شذرات من :

١ — السجل الرسمي لجريات حياة الاسكندر وأعماله اليومية
Ephemerides ، أنظر

F. Jacoby., F. Gr. H., II B I, No. 117.

وكان يقوم باعداد هذا السجل الرسمي يومئذ من قارديا ومساعدته
ديودوتوس من أروثراى •

٢ — المراسلات الأصلية التى كتبها الاسكندر وأولومبياس
وغيرها ونطالعها فيما كتبه بلوتارخ •
٣ — مؤلفات الكثيرين من معاصرى الاسكندر مثل :

قاليستينيس وخاريس وأونسيقريتوس وأناكسيمينيس وافيبوس
ومديوس ونيارخوس وبطليموس سوتير واريستوبولوس • أنظر :

C. Muller, in Dubner's Arrianus, as Scriptores rerum Alexandri Magni.

ثانياً — المصادر غير المعاصرة :

وهذه المصادر أربعة أنواع ، أحدها لم يبق منه الا شذرات مثل
ما كتبه قلايتارخوس فى عهد بطليموس الثانى • أنظر المرجع السالف
الذكر •

والنوع الثانى يتألف من مؤلفات وصل اليها بعضها كاملا والبعض
الآخر غير كامل • وأهم هذه المؤلفات هى :

(1) Arrinus Anabasis

وكان مصدر أريانوس (القرن الثانى للميلاد) الرئيسى مذكرات
بطليموس الأول سوتير ، واستكمل معلوماته من مؤلف أريستوبولوس ،
وأضاف الى ذلك مقتطفات من الرواية الشعبية ، لكنه كان حريصا على
أن يشفع هذه المقتطفات بعبارة « على حد ما يقال » • ويعتبر هذا
الكتاب أفضل المصادر المتأخرة وخير ممثل للرواية « الجيدة » •

(2) Diodorus Siculus, XVII - XVIII, 6.

وقد اعتمد ديودوروس (القرن الاول قبل الميلاد) الى حد كبير على أريستوبولوس ، لكنه ضمن ما كتبه الصيغة الكاملة للرواية الشعبية •

(3) Q. Curtius Rufus

وقد اعتمد كوينتوس روفوس « القرن الأول للميلاد » على مصادر مختلفة بعضها متعاطف مع الاسكندر مثل مؤلف قلايتارخوس ، وبعضها معاد للاسكندر مثل رسائل المشائين ، وبعضها موثوق به مثل ماكتبه بطليموس سوتير وأريستوبولوس • وما يجدر بالملاحظة أنه اذا كان كتاب قورتيوس رونوس لا يخلو من اطراء الاسكندر ، فانه يعطى صورة كاملة لآراء المشائين في الاسكندر ، ومضمون هذه الصورة أن الاسكندر كان طاغية أحرز انتصاراته بفضل الحظ السعيد وقضى عليه اغراقه في الاعتماد على حظه • وتتجلى في كتاب رونوس كل سمات الكتاب المشائين حيث الواقع بجمع المعلومات كما هي دون التمييز بين الحقائق والقصص أو بين الحق والباطل ، ومن حيث الاحتفال بوصف الاحداث المثيرة للعاطفة وصفا يفيض بالحيوية الدافقة •

(4) Plutarch, Alexander.

,De fortuna Alexandri.

وقد اعتمد بلوتارخ (حوالى ٢٦ — حوالى ١٢٠ ميلادية) على مصادر متعددة بعضها جيد وبعضها سيء ، وصور الاسكندر تصويرا نابضا بالحيوية لم يحاول أحد بعد تحليله • ويتضمن صور الكتاب الثانى احتجاجا حماسيا على التهم التى كالهها الراوقيون والمشاعون للاسكندر •

(5) Justinus, XI - XII.

قام بوستينوس في القرن الثالث الميلادى فيما يحتمل باعداد ملخص لكتاب بومبيوس تروجوس عن تاريخ العالم وهو الذى اعتمد

ففيما يخص الاسكندر على الرواية « الشعبية » والرواية « العدائية » •
ومن ثم فان القيمة التاريخية لموجز يوستينوس فيما يخص الاسكندر
محدودة جدا بل انها في نظر البعض معدومة •

والنوع الثالث يتألف من مجموعة مصادر تعتبر مرحلة انتقالية
الى قصة الاسكندر التخيلية • وهذه المصادر محدودة القيمة
التاريخية ، وهى :

Metz Epitome, Epitome rerum gestarum Alexandri. Itinerarum
Alexandri.

Berlin papyrus 13044 ; Berl. Sitzungsberichte, 1923, p. 150.

P. Oxyrh., IV, No. 679 ; XV, No. 1798.

Codex Sabbaiticus.

والنوع الرابع هو القصة التخيلية المخولة على قاليستينيس
(Pseudo - Callisthenes) وقد ظهرت لهذه القصة عدة صيغ بلغات
مختلفة في العصور القديمة والوسطى • وأشهر هذه الصيغ جميعا
الصيغ الاغريقية الثلاث [A, B, C (Muller)] • وهذه القصة مزيج من
الحقائق ومبتكرات الخيال • واذا كان من المحتمل أن أقدم صيغة
لهذه القصة بوصف كونها سردا متصلا لحياة الاسكندر قد
صنفت في العصر الرومانى ، فانه يبدو أن أجزاء غير قليلة منها ذات
أصل هيلينيسى ، كما يبدو أن بعض أجزاء أخرى ترجع الى أواخر
القرن الرابع الميلادى •

المراجع الحديثة

ولما كانت هذه المراجع كثيرة جدا فاننا أخذنا بعضا منها مراعين في الاختيار الأهمية الملحوظة من حيث المضمون ومن حيث ما تزود به القارئ من مصادر ومراجع •

Kaerst, Die Antike Idee der Oikumene, 1903 ; Beloch, Gr. Gesch., 2 nd ed., III, pt. I, ch. 16, 1928 - 9 ; Roussel - Glotz - Cahen, Hist. grecque, IV, Paris, 1938 ; Jouguet, Maced. Imperialism and the Hellenization of the East (Eng. Trans.) Lond., 1928 ; G. Radet, Alex. le Grand, 1931 ; Wilcken, Alex. d. Grossel (Eng. Trans. 1932) ; Tarn, Hellenistic Civilisation, 1952 ; Alexander, C.A.H., Vol. VI, ch. XII - XIII ; Alexander the Great and the Unity of Maukind, 1933 ; Alexander the Great, 2 Vols., 1948 ; K. Eddy, The King is Dead, Nebraska, 1961 ; H.C. Baldry, The Unity of Mankind, Cambridge, 1965 ; Alexander the Great, ed. G.T. Griffith, Cambridge, Badian, Historia, 72, 1968.

وقد نقل الاستاذ زكى على الى العربية الجزء الأول من كتاب تارن « الاسكندر الاكبر » ، القاهرة ، ١٩٦٣

وظهرت لهذا الجزء طبعة جديدة في بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٥٦ •

المصريون ، وحدهم ، استردوا بيت المقدس من الصليبيين

بقلم

الدكتور عبد المنعم ماجد

استاذ التاريخ الاسلامى

بكلية الآداب ، جامعة عين شمس

ان التاريخ لسان صادق ، يخبر الزمان دائما عن أمجاد مصر ومواقفها ، التى كان لها أبعد الاثر فى حياة الانسانية جمعاء ، وكأن العناية الالهية قد اختارتها لتحتل مكانة مرموقة بين أقطار الدنيا •

فمصر بعد الفتح العربى ، قد تحولت مثل غيرها من شعوب أخرى الى الاسلام والاستعراب ، فكان هذا التحول حاسما فى تاريخها ، بدأت به فترة جديدة تختلف فى طابعها عن الطابع الفرعونى والمسيحى السابق ، والذي جعل هذا التحول هاما ، هو أنه وقع فى وضوح التاريخ ، وأننا مازلنا نعيش فيه ، فى ظل الاسلام والعروبة •

حقا ان مصر فى عصر صلاح الدين كانت تسمى دائما بمصر ، وأهلها بالمصريين (١) ، الا أنه بسبب اسلامهم واستعرابهم ، قد دخلوا فى زمرة المسلمين والعرب ، فكلمة عربى أصبحت فى مفهومها تمثل اتجاهها جغرافيا ، يشتمل على الشعوب التى تتكلم العربية ، ممتدة من المحيط الى الخليج ، أما كلمة مسلم ، فقد شملت أهل هذه المناطق ، والمناطق الاسلامية الأخرى ، التى لا تتكلم العربية •

(١) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، نشر عبد الله بن السعود ، ١ ص ٢٢٠ •

وقد بدأ يظهر دور مصر في الاسلام منذ أن اتخذها خلفاء الفاطميين قاعدة لخلافتهم الواسعة ، الممتدة من المغرب الى الفرات ، فقد كان هدفهم اتخاذ مصر الغنية بمالها ورجالها قاعدة أصيلة في الدفاع عن الكيان الاسلامى والعربى ، ضد أى خطر خارجى ، وبذلك نبه الفاطميون الى أهمية مصر والمصريين بالنسبة للعالم الاسلامى والعرب .

وبالفعل عندما كانت تقوم المعارك الكبرى للاسلام فى أيامهم ، فان معظم جيشهم يكون من المصريين ، فقد وجدوا فيهم منيعا لا ينضب من الرجال ، فمصر كانت دائما أكثر البلاد الاسلامية عددا . ففى أيامهم كما تقول النصوص التاريخية كان المصريون يعبأون للحرب بما يسمى : « النفير العام » (٢) فى الناس ، وذلك بالمناداة بالسجلات أى المناشير . فبدأت المصريين من جميع أرجاء مصر من الاسكندرية الى أسوان . وفى أواخر أيام الفاطميين أصبح المصريون يكونون أيضا غالبية جيشهم الثابت ، سواء فى الجنود أو الامراء أى القواد ، بحيث نسمع كثيرا عن جند وأمرأء المصريين (٣) .

فأما قضى صلاح الدين على الفاطميين ، الذين ضعفوا بسبب الغزو الصليبي فى فلسطين فى آخر أيامهم ، وهو ما اشتهر فى كتب التاريخ الاسلامى بحركة الفرنج أو الاوربيين ، فان صلاح الدين بدوره جعل من مصر قاعدة للنضال ، ومن أهلها ركيزة لجيشه . حقا ، ان صلاح الدين فى أول الأمر اعتمد فى توطيد حكمه ضد الفاطميين على بنى جنسه من الاكراد ، الا أن هؤلاء كانوا أشبه بجيش خاص ،

(٢) أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) ، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ، ط. دار الكتب ، ٤ ص ١٢١ س ٥ . مثلا لمسا غزا باسيل الشام فى عام ٩٩٦/٣٨٦ .

(٣) المقرئى ، الخطط والاثار ، ٣ ص ٢ .

ولذا عرفوا بالخاصكية ، أو خواص السلطان ، أو باسمه الصلاحية ^(٤) ، أو بلقبه الناصرية ، أو حتى جند الحلقة ^(٥) ، لأنهم يحيطون به ، أو بالأكراد نسبة لجنسهم • وقبل صلاح الدين كان للفاطميين أيضا طوائف خاصة ، وبعد صلاح الدين ، فان سلاطين المماليك اتبعوا نفس النظام في اتخاذ الجيوش الخاصة ، أشهرها : المماليك البحرية والبرجية ، نسبة الى أماكن سكناهم في مصر • فهذه الجيوش الخاصة ، هي الأولى لتأييد حكمهم ، ولم تكن تتعدى بأى حال من الأحوال عدة آلاف •

أما بالنسبة للمعارك الكبرى أو معارك المصير ، فان صلاح الدين مثل الفاطميين من قبل ، والمماليك من بعد ، كان يتخذ من المصريين ركيزة للجيشين الاسلامي ، تصل بأعدادها الى مئات الألوف • فكما تقول النصوص التاريخية بوضوح تائم عن معاركه مع الصليبيين ، انه كان يقاتلهم بعسكر مصر التي جاءت : « بأهلها السمر » ^(٦) ، وفي مكان آخر : « فلما وصل العساكر المستدعى من الديار المصرية ^(٧) ، فرقهم في الميدان ، فقويت به قلوب الأمة » ^(٨) • ومع ذلك ، فيجب أن نقول أنه كان يوجد في جيش صلاح الدين غير عسكر المصريين عسكر من بلاد الفرات والشام ، حيث كان يطلق عليهم جميعا : العساكر الاسلامية • وليس معنى ذلك أن الطوائف الخاصة لم تكن تحارب

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بنى أيوب ، تحقيق الشيال ، ٢ ص ٤٢٥ •

(٥) أبو شامة ، ٢ ص ١٥٨ ، ١٦١ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، دمشق ١٩٥٣ ، ص ٤ •

(٦) عماد الدين ، الفتح القسى في الفتح القدسى ، مصر ١٣٢١ هـ ، ص ١٦٣ س ١٢ • يقول ابن الاثير المصريين • انظر الكامل في التاريخ ، تصحيح البخار ، ٩ ص ٢٠٨ س ١٢

(٧) نفسه ، ص ١٠ س ١٢ • نسمع كثيرا عن الاجناد المصريين • الخطط ، ١ ص ١٤٠ س ١١ ، الكامل ، ٩ ص ١٣٩

(٨) الفتح القسى ، ص ٨٠ س ١١ — ١٤ •

مع العساكر الاسلامية وانما يكون اشتراكها على الحضور بحراسة السلطان ، اذ يكونون حيث يكون السلطان •

وفي الواقع ، فان مصر لم تكن تزود جيش صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين بعساكر من أهلها فقط ، وانما بعساكر من السودان ، الذين كانوا يسكنونها ، وكثروا فيها ، اذ يقول النص التاريخي : « جاءت به بأهلها من السمر سودان مصر » ^(٩) حقا ان استخدام العسكر من السودان ، قد ظهر في وقت مبكر في مصر الاسلامية ، وفي أيام الفاطميين على الخصوص ، حيث بلغوا أكثر من مائة ألف ، حتى أن الخليفة عرف باسمهم : صاحب السودان ^(١٠) ، مثلما كان يعرف بالخليفة المصري ، كما وجدت لهم معسكرات كبيرة في القاهرة يذكرها المؤرخون في خطط القاهرة ، فانهم في وقت صلاح الدين كانوا أيضا في جنده وشاركوا في الدفاع عن الاسلام ضد الفرنجة •

كذلك قبط مصر — وهم يكونون قسما هاما من شعبها — أصبحوا عوناً لصلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين ، فنصوص معاصرة كثيرة تبين أنهم كانوا مع العساكر الاسلامية في الشام ، يقومون بأعمال شتى على الخصوص أعمال الدواوين ، أى الكتابة • فقد كان الصليبيون يعتبرون القبط مثل المسلمين الكفار ، اذ تقول الرواية القبطية وقتئذ ^(١١) : « وصرنا معشر النصراني اليعاقبة ، القبط ، لا نصل الى الحج اليها — أى بيت المقدس — ولا نتمكن من الدنو من ذلك ، لأجل ما هو معروف من بغضهم لنا ، وسوء اعتقادهم فينا ، وتفكيرهم ايانا » • بل ان صور صلاح الدين ، التي بين أيدينا ، هي من عمل القبط وحدهم ، اذ كانوا يضعون صورته بجانب الآنية المقدسة في الكنائس ، تقديرا لجهاده ضد الفرنجة •

(٩) نفسه ، ص ١٦٣ س ١٢ ، ١٥ •

(١٠) على الخصوص المصادر الصليبية ، انظر •

(١١) ابن المقفع : سير الابرار البطارقة للكنيسة القبطية في الاسكندرية

وبالاضافة الى أن المصريين كانوا ركيزة لجيش صلاح الدين البرى — فانهم على حسب النصوص التاريخية التى بين أيدينا — كانوا عماد الاسطول البحرى كذلك ، يدربون فيه على القتال البحرى والبرى ، ويسمون لذلك : بحرى وحربى . فكانت أشهر أساطيل المسلمين فى عصر صلاح الدين هى أسطول أو أساطيل الاسكندرية ودمياط ، وان عرفت جميعها بالأسطول المصرى ، أو حتى بحرية مصر (١٢) . وقبل صلاح الدين لم تكن الخدمة فى الاسطول اجبارية ، الا أنه فى عهده قد أصدر أمرا بأخذ الرجال للخدمة فيه (١٣) ، فكان الناس فى مصر يقدرون جهاد المقاتلة فيه ، ويتبركون بدمائهم ويسمونهم : المجاهدين فى سبيل الله ، والغزاة فى أعداء الله (١٤) .

وقد أنشئ للأسطول المصرى فى عهد صلاح الدين ، ديوان خاص به ، عرف : بديوان الاسطول ، ليقوم بالإشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها ، ودفع نفقة العاملين فيها ، فكان انشاء هذه الاساطيل فى دور الصناعة فى مصر يقوم بها القبط على الخصوص ، الذين اشتهروا منذ القدم فى هذه الصناعة ، حتى أنهم كانوا هم الذين بنوا الاساطيل العربية فى أيام الفتوحات الاسلامية الاولى . فكان أشهر المراكب الحربية الشوانى جمع شينى أو شونة (١٥) ، وهى مراكب طوال تجذف بثلاثة وأربعين ومائة مجذافا ، وتحتوى على أهراء لخزن القمح ، وصهاريج لخزن الماء الحلو ، ومزودة بأبراج

(١٢) الفتح القسى ، ص ٦٣ س ٥ ، ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ٢٠٢ س ٦ — ٧ .

(١٣) العينى ، عقد الجمان ، مخطوط بدار الكتب ، ٣/٢١ ورقة ٥٢٦ ، أنظر . سعداوى ، التاريخ الحربى ، ص ١٠٩ .

(١٤) الروضتين ، ٢ ص ١٣ — ١٤ .

(١٥) نفسه ، ٢ ص ١١ . بلغ عددها فى عهده ستون شينيا . نفسه .
عن انواع هذه المراكب ، أنظر بتفصيل كتابنا : نظم الفاطميين ، الجزء الأول .

وقلاع للدفاع والهجوم • والحراريق جمع حراقة ، وهى مراكب مزودة بالنفط ، الذى يرمى بالآلات القذف من المنجنىقات أو بالسهم أو فى القوارير ، لحرق سفن العدو ، والبطس جمع بطسية ، وهى تشتمل على عدة طبقات وعلى قلوب كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعا ، وتستخدم فى حمل الازواد والذخيرة على الاخص الرجال ، فكانت احدى البطس تحمل خمسمائة وألف شخص •

ولم يقف مجهود أهل مصر فى الجهاد مع صلاح الدين ضد الصليبيين عند ذلك ، وانما اشتمل أيضا على صناعة السلاح ، التى برعوا فيها • ولدينا كتاب عن ذلك لمؤلف اسمه الحسن الأبرقى الاسكندراني ^(١٦) ، الذى كان يمارس مهنته فى صنع الاسلحة فى أواخر أيام الفاطميين ، وألف لصالح الدين فى الفن الحربى وأنواع السلاح ، بعنوان : رسالة السلاح • فمن البراعات المصرية فى صنع السلاح ، نذكر آلة حديدية تسمى مثلثة ، لها أحجام مختلفة ، لنشرها على الأرض كالالغام فى وقتنا ، لتعوق تقدم العدو وبخاصة الفريسان ، كذلك برعوا فى استعمال النفط أو النفوط ^(١٧) ، وعرفوا منه نوع النفط الاسود أو الزفت الذى كان يوجد على ساحل البحر الاحمر (القلزم) فى سيناء ، يسيل من أعلى جبل ، ويجمع فى خزائن • فكان صلاح الدين يستخدم هذا النوع من النفط فى حروبه بكثرة ^(١٨) ، حيث يقذفونه فى قارورات ، ويلقونه بالقوس والسهم والمنجنىق • ومن ناحية أخرى كان انشاء التحصينات العديدة وبناء القلاع يتم بيد المصريين ، سواء فى مصر أو حتى فى بلاد الشام •

ويتبين مما سبق ، أن عسكر مصر كانوا هم الركيزة فى جيش صلاح الدين فى معارك المصير ضد الصليبيين ، بكل عناصرهم

(١٦) حققه وترجمه Cahen ، انظر

Un traité d'armurerie. Q.E.O. t. XXII, 1947 - 8, p. 103 - 164.

(١٧) صبح الاعشى ، ٣ ص ٢٨٨ •

وامكاناتهم • ففى الواقع كانت بلادهم مهددة من جانب هؤلاء ، فاضطر المصريون الى القيام بادفاع عنها ، فضلا عن قصدهم تخليص المقدسات الاسلامية فى بيت المقدس ، فهكذا كان قدرهم دائما •

حقا ان صلاح الدين جمع لجهاد الصليبيين مجاهدين من جميع بلاد المسلمين ، وبخاصة من عساكر مصر والشام والجزيرة ، الا أنه لم يقيم بالغزو الا عندما وصله العسكر المصرى (١٨) ، حيث أن المصريين قد أقبلوا على الجهاد معه • فلما وصل العسكر المصرى بأعداد كبيرة الى ميدان المعركة ، تحرك لغزو الصليبيين ، بأن استدرج هؤلاء الى مكان صخرى مجاور لقلعة كرك ، التى كانت شديدة التحصين عند قرية حطين أو حطين (٢٠) ، فقاتلهم وعسكره يصيحون صيحة رجل واحد : الله أكبر • وحين حمل العسكر على خيمة الملك الفرنجى وهو « جس » ، ملك فلسطين وقتذاك ، وتمكنوا من اسقاطها ، أسرع الفرنجة الذين كانوا اجتمعوا من كل مكان لنصرة ملكهم بالتسليم • وليس أدل على أهمية هذا الانتصار ، من قول المؤرخ ابن الاثير المعاصر للاحداث : فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحدا ، ومن يرى الاسرى يظن أنهم لم يقتلوا أحدا •

ومن ثم ، كانت هذه الموقعة العظيمة — وقعة حطين — مقدمة لانتصارات حربية هائلة هامة على فرنجة الشام ، بسبب أنهم فقدوا فيها معظم رؤسائهم ، اما قتلى أو أسرى ، اشترك فى معظمها المصريون

(١٨) الخطط ، ٢ ص ٣١

(١٩) الفتح القسى ، ص ١٠ س ١٠ • أو عسكر مصر نفسه ، ص ١٠ (فى آخر الصفحة) •

(٢٠) بتفصيل ، انظر كتابنا : الناصر صلاح الدين الايوبى ، طبعة

ثانية •

فيقول النص التاريخي أنه لما وصل العسكر المصري فرقة على المعارك (٢١) . فقد كانت هذه الانتصارات سببا في فتح بلاد الساحل ، ويقصد بها البلاد الواقعة على ساحل الشام ، مثل : عكا وغزة وحيفا وصيدا وبيروت وعسقلان . كذلك فتحت بعض الأماكن القريبة من بيت المقدس مثل : طبرية وبيت لحم والرملة ونابلس ، وفي هذه الأخيرة قاتل العسكر الاسلامي فرقة من اليهود كانت تدافع عنها مع النصاري ، فقتلهم عن بكرة أبيهم (٢٢) .

وبعد ذلك قويت همة صلاح الدين — بطل الحرب مع الصليبيين دون غيره من ملوك المسلمين — لاسترداد بيت المقدس ، قصبة فلسطين التي عرفت أيضا بالقدس ، أو حتى بالمسجد الأقصى ، الذي ورد ذكره في القرآن . ففيها وجدت الصخرة المقدسة ، وهي حجر لونه أزرق (٢٣) ، لم يطأها أحد برجله أبدا غير قدم اسماعيل ، الذي ينسب اليه العرب ، لما مشى عليها وهو طفل* ، فهي في قداستها تشبه الحجر الاسود بمكة . ثم ان القدس هي أول قبلة للمسلمين ، قبل أن تحول القبلة الى الكعبة ، وموضع الاسراء لنبي الاسلام بأن رفعه الله منها الى السماء . لذلك اعتبر المسلمون مدينة القدس ثالث بيوت الله في المكانة (٢٤) ، وبعد مكة والمدينة . . وقد كان المسلمون اذا جاء موسم الحج يذهبون اليها ، اذا لم يستطيعوا الذهاب الى مكة ، ويضحون هناك وهو ما يعرف الآن بالتقديس . ولعل ذلك قد حدث منذ أيام الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، الذي حج الى القدس في خلافته أكثر من عشرين ألف شخص ، وأقام

(٢١) الفتح القسي ، ص ١٠ (في آخر الصفحة) .

(٢٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ترجمة عربية ، ص ٢٩ . وقيل

بيضاء : الفتح القسي ، ص ٤٦ س ١٩ .

(٢٤) سفرنامه ، ص ٣٠ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٣ .

على الصخرة مسجدا عرف بمسجد قبة الصخرة ، لا يزال قائما
للان .

وقد اختار صلاح الدين لفتح بيت المقدس العساكر المصرية
من دون العساكر الاسلامية الاخرى ، وذلك راجع لكفاءتهم التى
ظهرت منهم فى المعارك السابقة ، لأن المصريين بالذات كانوا هم
الذين تقانوا فى الدفاع عنها ، لما استولى عليها الفرنجة الصليبيون
فى عام ١٠٩٣/٤٩٣ ، فقد كانت توجد فيها حامية مصر بقيادة
قائد اسمه افتخار الدولة ^(٢٥) ، ومع أن الفرنجة حاصروها بعدد
كبير ، وضربوها بالنار والحجر من المنجنيقات ، الا ان عسكر مصر
دافعوا عنها يومئذ بشجاعة نادرة ، مدة أربعين يوما ، فكانوا يفضلون
الانتحار بالقاء أنفسهم من بروج الحوائط عن تسليم أنفسهم ،
وهذا يبين دفاع مصر المستميت عن مقدسات المسلمين ، والتضحية
والتضحية بأنفسهم .

ومع أنه فى حطين كان قد أسر ملك فلسطين ، الا أن البطريك
— أو البطرك الاعظم ^(٢٦) — كان قد هرب الى بيت المقدس وأصبح
مركزه فيها أقوى من ملك . وكان فيه حينئذ من الفرنج ستون ألف
مقاتل ^(٢٧) ، من الداوية والاسبتارية والبارونية والفريرية وغيرهم
من طوائف المقاتلين ^(٢٨) . فلما جاء صلاح الدين القدس بعسكر
مصر ، أخذ يفكر هو والقادة فى كيفية الاستيلاء عليها ، واستمر
يطوف بأسوارها خمسة أيام ، لينظر من أين يأتيها لحصانتها
ومناعتها ، ولأنها كانت على قمة جبل ، والأرض المحيطة بها غير

(٢٥) النجوم الزاهرة ، ٥ ص ١٤٨ — ١٤٩ ، الكامل ، ٨ ص ١٨٩

(٢٦) الفتح القسى ، ص ٣٧ س ١٣ .

(٢٧) نفسه ، ص ٤٠ س ٢٤ — ٢٥ .

(٢٨) نفسه ، ص ٤١ س ١٣ — ١٤

مستوية • فنصب عليها منجنيقات كثيرة من ناحية الشمال ، وتحت ستار رميها الشديد ، تمكن الجند المصريون من الوصول للخندق ، ونقب السور •

عندئذ طلب البطريك الأمان لفرنجة القدس ، فرفض صلاح الدين ، لرغبته في فتحها عنوة بحد السيف بقصد الانتقام مما فعله الفرنجة من القتل والسلب في المصريين ، لما ملكوها • ولكن لما هدد البطريك بقتل أسرى المسلمين لديهم ، وبقتاله قتالا شديدا حتى الموت ، قبل منهم الأمان بناء على مشورة قواده • وقد اشترط صلاح الدين عليهم ، أن يرحلوا من البلدة في أربعين يوما ، وأن يتركوا خيلهم وأسلحتهم ، وأن يدفع كل رجل عشرة دنانير (خمسة جنيهاً) وكل امرأة خمسة دينار ، وكل صغير دينارين ، ونحن لا نجد شروطا لليهود ، ربما لأن الفرنجة لم يكونوا يسمحون لهم بالبقاء معهم بالقدس ، أو تقليدا لما حدث في أيام عمر بن الخطاب الذي منح الأمان للنصارى دون اليهود •

وقد كان تسليم القدس ليلة الاسراء من يوم الجمعة ٢٧ من رجب ٥٨٣/٢ ديسمبر ١١٨٧ ، بعد أن بقى في أيدي الفرنجة احدى وتسعين سنة ، حيث عرف فتحه بالفتح الاكبر • ولم يرض صلاح الدين أن يدخله الا ومعه مندوبيون من أطراف البلاد الاسلامية ، كما لم يتخلف شخص ذو حيثية من المثول معه ، وبخاصة علما من مصر ومتصوفيهما الذين كان صلاح الدين يميل اليهم ، حتى أنه كان يذهب الى الاسكندرية لسماع الحديث على أكبر علمائهم ، أمثال أبي الحافظ السلفى وأبى الطاهر ابن عوف وغيرهما ، فدخلها ومعه زهاء عشرة آلاف عمامة منهم • فجلس صلاح الدين للتهنئة وحوله الشعراء وأكثرهم من المصريين أيضا — كما يقول النص التاريخى — ينشدون قصائد المديح ، التى عرفت بالقدسيات ، نسبة الى يوم القدس • وفى أثناء تواجده بالقدس أقام صلاح

الدين في مدرسة للفقهاء الشافعية (٢٩) ، وهو مذهب المصريين ، كما رتب الدواوين ، وأقام في كل منها النواب المصريون (٣٠) .

وبذلك تحققت معجزة استرداد بيت المقدس من الصليبيين على يد عسكر مصر من دون عسكر المسلمين جميعا ، بحيث يقول عماد الدين الكاتب الأصفهاني ، الذي هو شاهد عيان لاستعادة بيت المقدس ، قال ان استعادته كانت على يد عساكر مصر وحدهم : « ولنفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار (٣١) ، وذلك بعد أن كان اليأس يعم المسلمين جميعا من عودة بيت المقدس اليهم ، بسبب أن المسلمين كانوا قد وهنوا ، حتى اعتبر تاريخ استردادها هجرة ثانية (٣٢) ، أى هجرة الاسلام الى بيت المقدس ، وان فتحها هو فتح الشام الثاني .

وعلى النقيض ، لا يبدو أن خليفة الاسلام بالعراق قد سر بفتح المقدس ، ربما حسدا لصالح الدين . فيظهر حقه المكبوت بارساله كتابا شديدا لصالح الدين وردت فيه العبارة التي قال فيها (٣٣) : « يفتخر علينا بالقدس » . كذلك يبدو الحقد المكبوت في العراق ضد المصريين ، الذين استعادوا بيت المقدس ، في اصطدام حجاج العراق بحجاج مصر في عرفات (٣٤) ، حتى أنهم قتلوا من هؤلاء جماعة

(٢٩) الفتح القسى ، ص ٥٣ س ٢١ .

(٣٠) نفسه ، ص ٤٤ س ٣ — ٤ . يقول عدة من النواب المصريين ، ومنهم من الشاميين مما يدل على أن عدد الاخيرين قليل .

(٣١) نفسه ، ص ٣٩ س ٢٠ — ٢١ . كتابه بعنوان : الفتح القسى في الفتح القدسى .

(٣٢) نفسه ، ص ٥ س ٤ .

(٣٣) نفسه ، ص ٥ س ٤ .

بتفصيل ، انظر . كتابنا : صلاح الدين الايوبى ، ص ١٥٠ .

(٣٤) الفتح القسى ، ص ٧٨ — ٧٩ ، الكامل ، ٩ ص ١٨٨ ، ابن عماد ، شذرات ، ٤ ص ٢٧٦

بحجة أنهم يحملون طبولاً ، فكان هذا الحقد العراقى المكبوت ضد صلاح الدين وعسكر المصريين ، بسبب استرداد بيت المقدس .

كان سقوط بيت المقدس ، سببا فى أن جعلت أوروبا تتحرك سريعا لاستتقاذه ، سيما وأن البطريرك الذى كان ببيت المقدس ، وتركه صلاح الدين يرحل عنها بالأمان ، دخل بلاد الفرنجة بأوروبا « أفرنجة » يطوفها جميعا ومعه صورة رجل عربى يضرب المسيح ، ليحثهم على الأخذ بثأر بيت المقدس من المسلمين . فعمل البابا هو الآخر بالتبشير بحرب صليبية جديدة ، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية الثالثة . فاشتريت أوروبا كلها فى هذه الغزوة بجميع بلادها وامكانياتها ، حتى بنسائها اللاتى جندن فى زى الرجال ، كما اشترك معظم ملوكها ، ومنهم : ملوك المانيا وفرنسا وانجلترا ، حيث يقول ابن الاثير عن الالمان انهم نوع من الفرنجة شديدى اليأس (٣٥) .

وفى الوقت ذاته أصبحت أساطيل مصر أو ما يعرف بأسطول أو أساطيل الاسكندرية تقوم بنصيب فعال فى قتال الفرنجة ، الذين كانت مراكبهم متواصلة وكثيرة على الساحل الشامى . فحينما اختار الفرنجة عكة أو عكاء (Akko) ، وجعلوها الهدف الأول فى سبيل استعادة بيت المقدس ، وحاصروها من البر والبحر ، استدعى صلاح الدين من مصر خمسين شينيا من المراكب الحربية الكبيرة (٣٦) ، وعلى ظهرها عشرة آلاف بحار مصرى (٣٧) ، فكان وجود هذه المراكب الحربية المصرية فى عكة ، داعيا الى تقوية حاميتها ضد

(٣٥) أتى ملك المانيا بمليون مقاتل (ألف ألف) . الكامل ، ٩ ص

٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٣٦) الفتح القسى ، ص ١٦٦ .

(٣٧) نفسه ، ص ١٦٨ .

المحاصرين • وكان بحارتها مدربين على القتال البحري والبري ،
ويسمونهم بحرى وحربى • ففى مرة استولى هذا الاسطول المصرى
على خمسة مراكب انجليزية كبيرة وطرادة (٣٨) •

ولعل أهم عمل قام به الاسطول المصرى — كما كان يسمى —
اقامته البدل (٣٩) لحامية عكة ، ففى فصل الشتاء لما سحب
الفرنج مراكبهم المحاصرة امام عكة ليهياج البحر ، نقل الاسطول
المصرى الى عكة زهاء عشرين ألفا من رجال الجيش والبحر • ويبدو
أن أغلب من دخلها من الجند المصريين ، بدليل وجود كتاب القبط •
ويقول المؤرخ ابن الاثير (٤٠) — المعاصر لهذه الحملة — أنه كان هم
الفرنجة محاربة المصريين وكسر شوكتهم ، بحيث أن المصريين وحدهم
خرجوا لهم وقتلوا منهم فى احدى الوقائع البرية عشرة آلاف قتيل (٤١)

وقد استمرت حامية عكة تقاوم الغزو الصليبي من الأبر والبحر
مدة ثلاث سنوات ، بسبب أن المصريين كانوا قد أعادوا تحصينها ،
فكان الذين أشرف على تحصينها بهاء الدين قراقوش ، وهو الذى
حصن القاهرة ، وبنى قلعتها ، فجاءها ومعه عمال ومهندسون من
أهل مصر ، كما أحضر أدوات وآلات كثيرة من مصر (٤٢) •

ولكن عكة أصبحت وشيكة السقوط فى ايدي الفرنجة ، بسبب أن
المصريين وحدهم كانوا هم المدافعين عنها ، وأن خليفة العراق لم
يرض بالمشاركة (٤٣) ، كما أن سلطان العجم بايران (٤٤) ، وأمراء

(٣٨) نفسه ، ص ٢٤٠ .

(٣٩) نفسه ، ص ٢٢٧ وما بعدها ، الكامل ، ٩ ص ٢١٠ .

(٤٠) الكامل ، ٩ ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٤١) الفتح القسى ، ص ١٠٢ س ١ .

(٤٢) نفسه ، ص ٩٠ — ٩١ .

(٤٣) نفسه ، ص ١٧٩ .

(٤٤) نفسه ، ص ١٧٣ — ١٧٥ .

الترك بآسيا الصغرى ، لم يلجأ النداء الذى وجهه لهم صلاح الدين ، وحتى أهل شمال أفريقيا ، بزعامة دولة الموحدين التى قامت فيها ، لم يكتفوا بالموقف السلبي ، وانما فكروا فى انتهاز الفرصة للاستيلاء على مصر ، وجعل المشرق يخضع لهم •

ولدينا وصف القتال فى عكة ، وهى وشيكة السقوط ، بعد أن تهدمت تحت رمى منجنيقات الفرنجة الكثيرة ، فكان كلما فتحت ثغرة فى السور ، سدها رجال عكة بأشلاء الموتى ، ولكن لما تهدم أغلب السور ، ودمرت أبراجه ، انحدر الفرنجة بجموع كثيرة ، ودخلوا البلدة ، ورفعوا راياتهم التى تحمل الصليب عليها • فمع ذلك استمر القتال فى الشوارع من بيت الى بيت ، وعلى الاسطح ^(٤٥) ، وأخيرا سلمت حامية عكة فى يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧/يوليو • ١١٩١

وقد أسرع صلاح الدين بعد هذه الهزيمة الى تقوية حصون بيت المقدس من جديد بعسكر من مصر بالذات ، خوفا عليها ، فيقول النص التاريخي كان السلطان وهو فى الشام يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله ^(٤٦) ، وبدعوة نجدة لأهل القدس على الكفر وأهله ، ف ضرب العسكر المصرى خيامه على بلبيس مدة ، حتى اجتمع الرفاق ، ويندو أن ريتشارد ملك الانجليز الذى كان أكبر ملوك أوربا ، قد قرر قبل أن يتجه الى بيت المقدس أن يسعى الى الاستيلاء على مصر ، أو على الاقل قطع الطريق بين مصر وصلاح الدين فى الشام •

ولعل جميع الاطراف قد بدأت تتعب من هذه الحروب الدمرة ، فالصليبيون لم يستطيعوا أن يستردوا بيت المقدس على الرغم من

(٤٥) نفسه ، ص ٢٦٣ •

(٤٦) نفسه ، ص ٣٥٦ •

وصولهم قريبا عدة مرات، واستيلائهم على بعض المدن الشامية من جديد حتى وصلوا الى ساحل مصر • أما المسلمون فقد تعبوا من الجهد المتواصل في الهجوم والدفاع ، سيما من المصريين الذين كانوا ركيزة العسكر الاسلامى • حينئذ بدأ الطرفان في التفكير في وسائل سلمية ، طالما أن الحرب لم تستطع أن تحسم النزاع بينهما •

وحتى في أثناء حصار عكة ، لما مرض ريتشارد ملك الانجليز ، وكان في حاجة الى الدجاج والفواكه والثلج ، فأرسل السلطان ما يريده منها ، ويمكن رسله من زيارة الاسواق الاسلامية (٤٧) • وبعد نصر الفرنجة في عكة ، عرض ريتشارد على صلاح الدين رد البلاد جميعها ، ويبدو أنه في أثناء هذه المفاوضات اتصلت صداقته بالعدل ، أخى صلاح الدين ، حتى أنه طلب منه مرة أن يسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له العدل مغنية تضرب بالعود ، فغنت له ، فاستحسن ذلك • بل عرض ريتشارد على العدل أن يزوجه أميرة مسيحية ، ويقوم هو وزوجته في القدس (٤٨) ، وبذلك ينتهى النزاع ، وقد قبل صلاح الدين ، الا أن ريتشارد تحت تحريض رجال الدين لديه اعتذر •

وأخيرا وقعت المصالحة (٤٩) بين صلاح الدين وريتشارد قلب الاسد ، ملك الانجليز ، وافق عليها جميع المسيحيين ، تكون مدتها ثلاث سنين ، وثمانية أشهر ، على أن تكون هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨/سبتمبر ١١٩٢ • وقد نص الصلح على أن يحتفظ كل فريق بما في يده ، على أن تبقى منطقة بينهما منزوعة السلاح (Noman's Land) وان يسمح للحجاج النصارى بالوصول الى بيت المقدس •

(٤٧) نفسه ، ص ٢٥٣ - ٣٥٤

(٤٨) نفسه ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، الكامل ، ٩ ص ٢١٦ - ٢١٧ •

(٤٩) الفتح القسى ، ص ٣١٥ وما بعدها •

وكان اقرار شروط الصلح بداية الصلوات والمودة بين الفريقين ،
فاختلط العسكر ، واختلطت التجارة ، وقد أمر صلاح الدين بالمناداة
فى الجند : أن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم أن يدخل فى
بلادنا ، فليفعل • ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم ، فليفعل •
كذلك وصل الحجاج الى القدس ، وزاروا كنيسة القيامة المقدسة •

ولاشك أن صلاح الدين كان محاربا شديدا ، الا أنه جنح للسلم
لما جنح الأعداء لها أيضا ، وأن ما قام به المصريون فى الحرب يعتبر
من الامجاد المصرية فى التاريخ ، اذ أن الحروب الصليبية كانت من
أكبر صراعات البشر •
